من
تراث الرواد

"جهادية" الجيش المصري والخدمة تحت علم آخر

الدكتور محمد رفعت رمضان

أستاذ التاريخ الحديث المساعد بجامعة القاهرة

(فرع الخرطوم)

"جهادية" الجيش المصري والخدمة تحت علم آخر

مقدمة :

الفترة التي شهدت سقوط الخرطوم في يد المهدية (١٨٨٥) وصدور قرارات مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ الخاصة بتنظيم غرب أفريقية وتحديد مناطق النفوذ الأوربي في أعالي النيل، لها أهمية خاصة في تاريخ المنطقة الاستوائية من القارة الأفريقية. ففي إبان تلك الفترة كانت المنطقة مسرحًا لنوعين من المحاولات: محاولات استعمارية وأخرى تحررية؛ ومن أمثلة النوع الأول محاولات بعض الدول الأوربية من أجل تثبيت أقدامها في مستعمرات جديدة، ومن أمثلة النوع الثاني حركة محمد أحمد في السودان.

فإذا اتجهنا في هذه المنطقة من الشرق والغرب وجدنا الألمان في شرق أفريقية، والانجليز في زنجبار وكينيا، كما ندهم في أوغندة، بينما نجد البلجيكيين في الكونغو الحرة. والألمان والانجليز والبلجيكيون كلهم دخلاء على القارة الأفريقية.

وإذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال على امتداد حوض النيل من منابعه في الجنوب إلى مصبه في الشمال نجد دولا أو قوى أفريقية صميمة تتصارع في سبيل السيادة أو التحرر: فشعب البانيورو في الشمال الغربي من أوغندة يحاب شعب الباغندة الذي يدعى حق السيادة عليه، كما نجد مديرية عموم خط الاستواء المصرية صامدة لغزوات المهدية، بينما نجد الحركة المهدية في حوض النيل الأوسط تحاول إجلاء المصريين عن السودان، بل وتهدد شمال الوادي بالغزو، كما تهدد المنطقة الاستوائية حيث صمد مدير عموم خط الاستواء وجنوده من أورطتي الجهادية.

وكان واضحًا منذ البداية أن وصول هذه القوى المتصارعة والدول المستعمرة إلى أهدافها إنما يتوقف على مدى ما تعده كل منها من قوة حربية مكتملة العدد والعدة. غير أن التجنيد من داخل المنطقة بالنسبة للدول الأوربية المستعمرة كان في حكم المستحيل، والتجنيد من خارج المنطقة كان متعذرًا

بالنسبة لتلك الدول أيضًا. حقًا كان في وسع كل من ألمانيا وانجلترا وبلجيكا أن تستقدم جنودًا من غير الأفريقيين، ولكن تجنيد هؤلاء اعتبر في ذلك الحين عملية خاسرة لاعتبارات كثيرة، نظرًا لما تتطلبه من تكاليف باهظة، فضلا عن عدم تعود الجيوش الآتية من خارج القارة على العمل في ظروف مناخية وطبيعية وصحية قاسية كظروف تلك المناطق الاستوائية. كما كانت الدول المستعمرة جد حريصة على عدم إثارة شكوك الوطنيين في تلك المناطق، عندما يروا الرجل الأبيض على رأس جيش من البيض أو عندما يروا حشودًا من الملونين من خارج القارة الأفريقية؛ والأفريقي في ذلك الحين كان لا يطمئن إلى الرجل الأبيض ولا إلى نواياه، كما أن الخبرات السابقة للزنجي الأفريقي مع الأفريقيين من الأجناس الأخرى، كانت خبرات مريرة قاسية، كثيرًا ما كلفته حياته أو أفقدته حريته وهدمت كيان قبيلته. كيف تسنى إذن لتلك الدول أن تحصل على جيوش مدربة من داخل المنطقة ؟

في العمليات الأولى للألمان في أفريقية الشرقية الألمانية، وللإنجليز في أعالي النيل كانوا يعتمدون على تجنيد الزنزباريين والسواحيليين، ولكن هؤلاء كانوا أصلح كحمالين منهم كجنود، ورغم أنهم تكلفوا كثيرًا فإنهم لم يظهروا الجلد الكافي.

وبينما كان الألمان والإنجليز والبلجيكيون يشقون طريقهم نحو أهدافهم في صعوبة ومشقة بجنود تنقصها الخبرة ويعوزها التدريب إذا بحادث خطير هز كيان وادي النيل، أعنى ظهور محمد أحمد المهدي وقيامه بحركة يستهدف بها أهدافًا دينية وأخرى سياسية تقوم على تحرير السودان من حكم "التركية" ودعوة المسلمين وغير المسلمين للدخول في سلك المهدية.

واضطرت الحكومة المصرية تحت ضغط الحوادث وتحت ضغط دولة الاحتلال، بريطانيا، إلى الموافقة على تنفيذ خطة تقوم على انسحاب قواتها من شمال السودان، والاحتفاظ ببعض مراكز استراتيجية في الشرق ترقبا للفرص. وحاصر الأنصار الخرطوم وسقطت في يناير ١٨٨٥ وسيطروا على شمال السودان. ولكن السودان الجنوبي في مديريتي "بحر الغزل وعموم خط الاستواء" بقى بعيدًا عن يد الأنصار عدة سنوات بعد ذلك وكان لسقوط الخرطوم مغزى معين بالنسبة لمصر فقد قطع عليها طريق الوصول إلى المناطق التي كانت

تجند منها الجهادية وهم قوام "أورط" الجيش المصري في السودان، فمن بين أفراد قبائل الشلوك والدنكاو النوير كانت مصر تتخير الصالحين للجندية، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الزاندى. وكان المجندون من أبناء هذه القبائل يدربون تدريبا عسكريًا ممتازًا وينظمون في "أورط سودانية" بقيادات مصرية بعد تطعيمها بكفايات من ضباط الصف القدامى في نفس المنطقة.

غير أن مغزى سقوط الخرطوم بالنسبة لمصر لم يكن قاصرًا على استحالة تجنيد السودانيين الجنوبيين في الجيش المصري، وإنما كان له وجه آخر أخطر وأعمق، فإن سقوط الخرطوم في يد المهدية، وضع أسفينا بين مصر وحامياتها من الجهادية في المديريات الاستوائية. ورغم أن محمد أمين مدير عموم خط الاستواء كان قد وطد العزم على عدم التسليم للمهدية، وعلى أتباع سياسة الاكتفاء الذاتي والاعتماد على موارد المديرية في البقاء وفي الدفاع عنها، إلا أن مسألة بقاء تلك المديرية كانت مسألة وقت ليس إلا، إذا كان المنتظر بعد أن يفرغ المهديون من مشكلاتهم التي لا حصر لها في الشرق والغرب والشمال، وبعد أن يأمن الخليفة عبد الله على مركزه في الداخل، أن يتطلع إلى الجنوب بغية الاستيلاء على ما بقى من المراكز المصرية في أعالي النيل.

والموقف على هذا النحو كان مفهوما جيدًا لدى محمد أمين وجنوده وموظفيه، وكان يتردد صداه في تقاريره التي كتبها إلى الحكومة المصرية، لا سيما بعد أن أصبح الاتصال بمصر لا يتم إلا بصعوبة، وأصبح بجهل ماجريات الأمور في مصر بل وفي السودان الشمالي أيضًا، كما أصبح وصول النجدة المصرية في حكم المستحيل(١) ومن هنا نفهم السر في اتجاه أمين إلى مناشدة أوربا وخاصة انجلترا أن تهب لمساعدته.

ومصر في ظل الاحتلال البريطاني ما كانت تستطيع إلا أن تتصرف على النحو الذي فعلته، وبعبارة أخرى ما كانت لتستطيع في مسألة إخلاء السودان إلا أن تأتمر بأمر انجلترا والمسئولون البريطانيون في مصر كانوا يظهرون غير ما يبطنون، فهم يدعون أن انسحاب مصر من السودان ضرورة حربية يستلزمها فن القتال، ولكنهم كانوا يبطنون غير ذلك.

كانوا يرسمون الخطة للاشتراك مستقبلا مع مصر في شمال السودان؛ أما

عن الجنوب فكانوا يرون أن الحامية المصرية في خط الاستواء وهى في ذلك الحين مكونة من أورطتين من خيرة الجنود المدربين من السودانيين والمصريين بكامل عدتهم وعتادهم بما فيهم من ضباط وضباط صف وجنود وعمال فنيين وبحارة وميكانيكيين وبواخر نهرية مسلحة يمكن أن تصبح كلها لقمة سائغة لانجلترا تحقق بها مصالح انجليزية، وأداة تسخرها للوصول إلى أهدافها في إفريقية الاستوائية؛ سواء في احتلال أوغندة أو غيرها من بلاد أعالي النيل، بل ويمكن أن تتخذها أوراق رابحة في مساومة دولية، وبذلك تفوز بقصب السبق في السباق الدولي نحو النيل. وتستطيع بعد أن دخلت مصر محتلة على أشلاء ثورة عرابي أن تدخل السودان منتصرة على أشلاء ثورة المهدي.

وعلى هذا النحو أصبحت أورط الجهادية السودانية صيدًا ثمينًا يتطلع الكثيرون إلى الحصول عليه. ولم تكن انجلترا وحدها هى التي تطمع في الحصول على جنود تلك الأورط وإنما شاركتها في ذلك ألمانيا وبلجيكا وإينورو وحكومة المهدية في السودان فضلا عن مصر ذاتها، فمصر حاولت استرداد قوات هذه الأورط، وأسهمت في حملة بقيادة ستانلي لإنقاذها، والأنصار حاولوا قطع السبيل على هذه الأورط والحيلولة دون عودتها إلى مصر، والألمان حاولوا كسب مدير المديرية ليعمل لحسابهم في مشروعاتهم الاستعمارية في إفريقية الشرقية الألمانية، والانجليز حاولوا الاحتفاظ بهؤلاء الجنود للعمل في احتلال أوغندة وتنظيم حملة لاستعادة السودان. كما أن البلجيكيين حاولوا نفس الأمر رغبة في التوسع في الكونغو وأعالي النيل.

والغرض من هذا البحث أن نبرز ثلاثة أمور: الأول، أن أورط الجهادية السودانية بالجيش المصري في مديرية عموم خط الاستواء أصبحت في تلك الفترة بالذات العمود الفقري لجيوش ست دول أو وحدات سياسية إفريقية.

والثاني أن تنافس الدول في الوصول إلى النيل تضمن فيما تضمن محاولة تلك الدول الاستحواذ على حامية خط الاستواء المصرية واتخاذها نواة لقواتها الحربية.

والأمر الثالث، أن الخطة التي وضعها الانجليز في إفريقية الشرقية البريطانية لاغتصاب هذه القوات العسكرية النظامية المدربة، لأنفسهم دون

غيرهم من الدول الأخرى، كانت تقوم على استغلال حملة الإنقاذ التي قادها ستانلي، والاحتفاظ بهؤلاء الجنود في المنطقة فتكون انجلترا أول وريثة لمصر في أعالي النيل. فلما فشلت الخطة نتيجة يقظة الجند وتشككهم في نوايا الانجليز، عدل هؤلاء خطتهم وراحوا يحاولون تجنيد من عادوا إلى مصر، ومن فاتهم قافلة ستانلي، ومن تمرد من الحامية ظنا منهم بأن أوامر الجلاء التي أرسلتها الحكومة المصرية غير صحيحة وإنما زيفها ستانلي ومن معه.

وقد استخدمت في هذا البحث وثائق أصلية، ينشر بعضها لأول مرة، أصولها موجودة في محفوظات الخرطوم وكلها متعلقة بإفريقية الشرقية الألمانية وأوغندة والكونغو الحرة وفترة المهدية ومصر. إلا أنها موجودة بصورة مشتتة لا توحي بأى شيء، ولكنها بعد التجميع والترتيب التاريخي تبرز الصورة الجديدة وتهدى إلى الحقائق التاريخية التي وصلنا إليها في هذا البحث.

(١)

المهدية والجهادية

وكان أمراء جيوش المهدية حريصين على أن تضم جيوشهم فرقًا من الجهادية، ولذلك كانوا يجمعون أسرى الجهادية ويشكلونهم في مجموعات من "مائة" على كل مجموعة منها جهادي قديم باسم "رأس مائة".

ويرجع هذا الحرص إلى أن استخدام الجهادية في صفوف المهدية كان يحقق للحركة فوائد شتى: فالجهادي محارب صلب المراس، جيد التدريب، يقدس النظام ويدين بالطاعة ويتسم بالشجاعة. وفضلا عن ذلك كان يجيدا استخدام الأسلحة النارية. فبينما كان معظم الأنصار "حرابة" يتخذون الحربة سلاحًا، وليس فيهم من "البنداقة" إلا القليل، كان الجهادية جميعا مسلحين بالأسلحة النارية. وقيمة هذه الأسلحة لا تنكر في معارك الميدان حيث تقلل المسافات الطويلة من قيمة الحراب. وبالإضافة إلى ما سبق فإن أولئك الجهادية كانوا أصلح من غيرهم للقتال في المناطق الوعرة في الشرق ضد الانجليز والمصريين، وضد الأحباش والطليان. بل أنهم كانوا الجنود المثاليين لخوض المعارك في جنوب السودان حيث مسقط رأسهم، فهناك بيئتهم الطبيعية، يألفون جوها ولديهم المناعة ضد أمراضها، وقد خبروا سهولها ووهادها ووقفوا

على مسالك غاباتها. وكما كان الميدان الشرقي محتاجا إلى خدماتهم فإن الميدان الجنوبي كان يحتم استخدام الأنصار لهم نظرًا لكفاياتهم الخاصة وتوافق تلك الكفايات مع ما تتطلبه ظروف القتال في تلك الجهات. وفي هذين الميدانين بنوع خاص كانت كل سرية من سرايا المهدية تحرص على أن يكون ثلث عددها على الأقل من الجهادية.

فسرية "خط الاستوي" مثلا التي كان عاملها وأميرها "عمر صالح" وكان موكولا إليها مهمة تطهير المديريات الاستوائية "بحر الغزال وعموم خط الاستواء" من الأجانب وصد أية قوات تحاول اقتحام المنطقة، كان عددها ١٥٠٧ محارب، منهم ٩٨١ من أولاد العرب، ٥٢٦ من الجهادية(٢) وكانت هذه النسبة العددية تكاد تكون محفوظة دائما في جيوش المهدية التي تعمل في الجنوب.

وعندما أخذت الجيوش المصرية في تنفيذ خطة الانسحاب من السودان حتى حلفا وسقطت الخرطوم في يناير ١٨٨٥ وأصبح شمال السودان خلوا من الجيش المصري إلا في سواكن وكسلا بدأ مورد الجهادية ينضب وشعر الأنصار بحاجتهم إلى ذلك النوع من الجنود، وأخذوا يفكرون في تدارك حاجتهم إلى الجهادية بأى ثمن.

كان أمامهم طريقان: الأول تجنيد جهادية جدد وتدريبهم وتسليحهم وتربيتهم ليدخلوا في سلك المهدية ويحاربوا في صفوفها وينصروا قضيتها. والثاني محاولة الحصول على أورطتي الجهادية أى حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية، حيث كان مديرها محمد أمين قد وطد العزم على البقاء مهما كلفه الأمر.

وتحقيق أحد الأمرين كان يختم على الأنصار غزو الجنوب. ومن هنا يتضح لنا عامل هام من العوامل التي دعت المهدية إلى إرسال "سرية خط الاستوى" ومحاولة إخضاع تلك الجهات لسلطة المهدية. بدأت تلك المحاولة في عام ١٨٨٤ بغزو مديرية بحر الغزال حيث انتصر المهدويون وسلمت المديرية في ٢٨ أبريل ١٨٨٤ وانضم معظم الجهادية إلى الأنصار. ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون جاهدين إسقاط مديرية عموم خط الاستواء وأسر المدير ورجال أورطتي الجهادية، وعدم تمكين ستانلي الذي جاء على رأس حملة لإنقاذهم من إتمام

مهمته.

ولم تكن مهمة الأنصار في الجنوب سهلة هينة، وإنما استمرت جهودهم في انجازها من ١٨٨٤ حتى نهاية عهدهم، واستغرقت ما بقى من حكم المهدي وعهد الخليفة عبد الله التعايشي، كما تطلبت جهود ثلاثة من عمال المهدية وقوادها المحكين وهم كرم الله ١٨٨٤ وعمر صالح ١٨٨٨ وعربي دفع الله , ١٨٩٣

وقد حاول الخليفة عبد الله أن يواجه ذلك النقص الخطير في قوته الحربية بتوفير الصالحين لصفوف الجندية وخاصة عندما "حصل بقفرة- أى معسكر- سواكن ضعف شديد نظرًا لقطع تواتر الرقيق المذكور..." فأصدر إلى كرم الله كرقساوي أمرًا "بمنع بيع الرقيق الذكور مع السماح ببيع الإناث لإزالة ضرورات الأنصار"(٣).

كما كتب عمر صالح عامل سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله يوضح أهمية غزو الأقاليم الاستوائية لسد النقص في القوة الحربية فكتب يقول "إن جهات مديرية خط الاستوى متسعة ومشحونة من الجهادية وعبيد الخطرية السابقين والمألفين من عبيد الدار، ولا يمكن الحصول على ذلك إلا بواسطة وجود القوة الكفاية من الأنصار، وأن الجيش الذي معنا الآن بالنسبة لاتساع البلد قليل جدا ولا يمكن تفرقته في وسط العبيد"(٤).

وحاول الأنصار القيام بمثل التجربة التي وفق فيها المصريون من قبل، أعنى تجنيد زنوج الجنوب وتنظيمهم في فرق حربية جيدة التدريب باسم "أورط الجهادية" فأخذوا يغزون القبائل وخاصة في إقليم مكركة- غرب وجنوب بحر الغزال- حيث المورد الخصب من الرجال الذي كانت تستمد منه أورط الجهادية في الجيش المصري خيرة رجالها من الزاندي، وراحوا يجمعون "العبيد" ويؤلفون قلوبهم، لا للانتظام في سلك المهدية فذلك كان بعيد المنال لأنهم كما قال عنهم عمر صالح "عبيد مجوس ولا تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف" ولكن بقصد مسالمة المهدية والقتال في صفوفها لنشر لوائها ورایاتها(٥). فكانوا يتألفون شيخ القبيلة فيكرمونه ويرسلونه إلى البقعة- أم درمان- حيث يبقى مدة في رعاية الخليفة، يسبغ عليه من عطفه ويتولى مذاكرته وتربيته حتى إذا عاد إلى قومه قام بدوره بتأليف رجال قبيلته(٦).

وبهذه الطرق استطاع الأنصار الحصول على مئات من الجنوبيين الأشداء، يؤكد هذا ما ورد في معظم الخطابات المتبادلة بين عملاء سرايا المهدية في جنوب السودان وبين الخليفة من الإشارة إلى أعداد "الرقيق والعبيد" الذين توالى إرسالهم إلى أم درمان، بل أن عمال سرايا المهدية كانوا يطالبون الخليفة بإرسال إمدادات ضخمة تمكنهم من الحصول على أعداد كبيرة من الجنوبيين لتجنيدهم في جيش المهدية.

ولم تكن وجهة نظر عربي دفع الله أمير سرايا المهدية في الجنوب تختلف عن وجهة نظر من سبقه في هذا المركز، كان يرى أن الأقاليم الاستوائية يمكن أن تصبح موردًا طيبًا للمهدية تحصل منه على سن الفيل والجهادية بشرط توفير العدد الكافي من الجيش وكان يعتقد بضرورة توفير ستة آلاف مجاهد حتى يمكنه أن يرسل كل عام إلى أم درمان ستة آلاف قطعة سن فيل وستة آلاف عبد أمرد. ولا زال عربي يغرى الخليفة بإرسال الإمدادات ويمنيه بقوله "فإن شاء الله في أيام قلايل تنزل المردان أفواجا أفواجا حتى تمتلا كاره البقعة منهم ويحتاج الحال لتفريقهم للجهات لحمل السلاح لا سيما وأن هؤلاء العبيد مأمونين العاقبة بعد دخولهم في سلك المهدية..."(٧).

ونتيجة لهذه الجهود كلها استطاع الأنصار أن يظفروا بأعداد ضخمة من الرقيق والعبيد أدخلوهم في سلك الجهادية وإن لم يدخلوا في سلك المهدية، وأصبح لدى الأنصار سرايا من الجهادية القدامي وآخرون من الجهادية الجدد. غير أن هذه الجهود كانت تفسد على يد الجهادية أنفسهم؛ "فالمؤلفون من العبيد مكروا وعصوا، ولم تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف وتمادوا على العصيان ومحاربة أنصار دين الله الملك العلام وقتلوهم في أيما واقعة قتلة عظيمة وشتتوا شملهم وفرقوا جموعهم لأنهم حزب الشيطان.."(٨)، بل أنهم كانوا ينتهزون فرصة تكليفهم بالغزو فيهربوا بل أنهم كانوا ينتهزون فرصة تكليفهم بالغزو فيهربوا ويختفوا " بداخل العبيد العصات"(٩). وهكذا كان الأنصار يفقدون الرجال والسلاح بدون حرب. وترتب على ذلك أن امتنع عمال سرايا المهدية عن تكليف هؤلاء الجهادية بأية عمليات حربية فى مواطنهم الأصلية مهما كانت العملية مهمة(١٠).

وإذا كان الأنصار لم يوفقوا فى تأليف العبيد إلى الدرجة التى يطمئنون فيها إلى إخلاصهم فانهم بالمثل لم يوفقوا فى إعدادهم للجندية ولا فى تدريبهم. والتقرير الذى رفعه عمر صالح عامل سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله رسم بونا شاسعا بين الجهادية القدامى الذين تمرسوا فى أورط الجيش المصرى وبين الجهادية الذين جندهم الأنصار من أبناء قبائل الجنوب فى بحر الجبل وبحر الغزال.

وكان عمر صالح صريحا إلى حد كبير عندما كتب إلى الخليفة يقول " إن الجهادية الذين معنا هنا من جماعة أبو روف (من الجدد) ولا يفقهون كيفية الجهادية، وطبيعتهم مايلة إلى طبايع أولاد العرب، وإذا ضرب البورى فى أمر الجهاد أو لأجل ينبهوهم فى أمر أو للدورية أو الخروج خفر فجميع ذلك لا يعرفون منه شىء، ومنهجهم بخلاف منهج الجهادية ... فالأمل إذا تكرمتوا علينا بإرسال الجيش أمكننا أن ترسلوا لنا قدر ما يتان جهادى من الجهادية الصادقين المتربين القدام وتكون أسلحتهم من صنف رامنتون ومعهم أثنين بروجية تكون لهم معرفة بضرب البورى ... والجهادية الأصليين لهم نفع لأجل يألفوا إخوانهم الذين يوجدوا هنا لأن كل جنس ألف جنسه ويروا إخوانهم ...(١١).

* * *

وراح الأنصار يجتمعون من عساه يقع فى أيديهم من أسرى الجهادية ، إلا أن أعدادهم لم تكن بحيث تكفى حاجتهم الملحة للجهادية. كان عليهم حينئذ أن يبذلوا كل مجهود فى سبيل الحصول على أورطتى من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية. ومن هنا قرر الخليفة استئناف العمليات الحربية فى الجنوب.

وكانت أخبار التمرد الذى حصل فى صفوف الأورطتين يصل إلى أسماع الأنصار ويشد عزائمهم، ولم تلبث أن وصلت أخبار حملة ستانلى لإنجاد أمين باشا إلى أسماع الأنصار وما صحب مجئ تلك الحملة من أحداث جسام نتيجة لموقف جنود الأورطتين من ستانلى وحملته. وأصبح هؤلاء الجهادية طلبة الأنصار وبغيتهم وأرسل عمر صالح يغرى الخليفة بإرسال مدد سريع حتى يحصل على الجهادية، ويشير إلى تخوفه من أن ينساق هؤلاء خلف ستانلى

ويقبلوا الرحيل إلى مصر بعد أن رفضوا لاستجابة لأمين(١٢)

ولم يكن الجهادية طلبة الأنصار لمجرد الحصول على " الجهادية القدامى الصادقين المتربين الصالحين للجهاد" وإنما رغبوا فيهم أيضا للحصول على نسائهم. ذلك لأن سرية " خط الاستوى" كانت خلوا من نساء الأنصار، فلم يسمح الخليفة لرجالها باصطحاب النساء معهم نظرا لبعد الطريق وقسوة الحياة فى تلك الأقاليم وسط قبائل معادية من " العبيد المجوس" ولذلك كتب عربى دفع الله إلى الخليفة بمجرد وصوله لتسلم مقاليد القيادة يشرح ما آمال إليه أمر الأنصار وخاصة لأن " رقيق هذه الجهة ليس فيه قابلية ولياقة للتسرى والنسا هنا لا وجود لهن". حتى لقد اضطرهم الأمر إلى تفريق نساء أسرى الجهادية على الأمراء والمقاديم والأخوان " بعد استخراج الخميس لتسوية أمور معايشهم وتسريهم وإن كانوا كبقية رقيق الجهة فى عدم الأهلية للتسرى"(١٣).

ومن هنا نفهم جانبا من السر فى الكفاح المرير الذى قام به الأنصار فى الجنوب وإسراعهم فى الحصول على أورطتى الجهادية بأسلحتهم وذخائرهم ونسائهم ورقيقهم، قبل أن يرحلوا عائدين إلى مصر مع ستانلى أو يظفر (النصارى) من البلجيكيين والانجليز بتجنيدهم لحسابهم. والمعارك التى دارت بين هذه الأطراف ليست سوى معالم الطريق إلى تحقيق الأغراض التى ينشدونها.

(٢)

مصر وإعادة تنظيم " أورط الجهادية" بالجيش المصرى

كان لمصر مديريتان فى المنطقة الاستوائية: مديرية بحر الغزال وتكفى بأرض الأنهار إذ كانت تغطى حوض بحر الغزال ويديرها بك الإنجليزى Lupton، ومديرية عموم خط الاستواء على امتداد النيل الأبيض من فاشودة شمالا إلى حدود أوغندة جنوبا وكان مديرها محمد أمين وهو ألمانى كان يتسمى من قبل باسم الدكتور ادوار شنيزو .E. Schnitzer

ونتيجة لتقدم المهدية عزلت هاتان المديريتان عن الخرطوم وبالتالى عن القاهرة وسواكن، وكان عزلهما تمهيداً لعمليات الأنصار الحربية فى الجنوب.

واستطاع دعاه الأنصار أن يوقدوا نار الثورة بين الجنونيين وخاصة قبائل الدنكا والبارى ، وهكذا انحصرت الحاميات المصرية فى جنوب السودان بين خطر غزو الأنصار وهجمات الثوار من قبائل الدنكا والبارى والشلوك. وشهدت السنوات من ١٨٨٤ إلى ١٨٩٥ تقدما مضطردا نحو الجنوب انتهى بتسليم لبتون بك الانجليزي مدير بحر الغزال . أما الحامية فقد فر بعض رجالها وتشتت بين القبائل ، بينما أنحار بعضهم إلى المهدية وحارب فى صفوفها(١٤). ولم تلبث مديرية عموم خط الاستواء أن تعرضت لخطر المهدية وزاد الخطر بعد سقوط الخرطوم فى يناير , ١٨٨٥

كانت حامية المديرية تتكون من أورطتين من الجند النظامى المسلحين ببنادق رمنجتن تبلغ عدتهم ١٥٠٠ جنديا كلهم من الزنوج ماعدا ٤٠ مصريا للمدفعية، يقودهم عشر ضباط مصريين، ١٥ ضابطا سودانيا، بالإضافة إلى بعض البحار. وكانت كل أورطة مقسمة إلى فصائل يتراوح عدد كل فصيلة منها بين ١٠٠، ٢٠٠ رجل يحرسون عشر مراكز، بكل مركز عدة محطات(١٥).

وقد وقعت معارك حامية بين الأنصار وحامية المديرية تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة وتبودلت بعض المحطات أكثر من مرة ، بل لقد اضطر المدير إلى نقل عاصمة المديرية من لادو إلى دوفيلة ومنها إلى وادلاى . وتقارير محمد أمين إلى الحكومة المصرية ورسائل أمراء سرايا المهدية إلى الخليفة عبد الله تفيض بتفاصيل هذه المعارك.

وكان الأمل يراود أمينا فى أول الأمر، وظل ينتظر مددا من الخرطوم أو نجدة من القاهرة، فلما انهار صرح نتيجة لسقوط الخرطوم بدأ يتجه بأنظار نحو زنزبار ونحو أو غنده، عله يستطيع عن طريق التفاهم أن يفتح طريقا ينسحب منها إلى الساحل ثم إلى مصر . ومن أجل ذلك أنشأ علاقات دبلوماسية مع ملكى أوغنده وأنيورو.

وعندما استبد به القلق بدأ ينشد المساعدة من أوربا وخاصة من انجلترا، ومن ثم بدأت حركة قوية فى أوربا بقصد انقاذ أمين وجنوده. وتمخضت تلك الحركة عن إرسال حملة لانقاذه بقيادة الرحلة ستانلى، أسهمت فيها الحكومة المصرية بالمال والرجال(١٦).

وعند هذا الحد انتهى عهد التفاهم بين أمين وفريق كبير من الحامية، فقد تمردت الأورطة الأولى وقلة من الأورطة الثانية نتيجة لانتشار الإشاعات. وأن هدفها حمل لأولئك " المسيحيين".

وبصرف النظر عن التعقيدات التى سببها تمرد معظم رجال الحامية ، مما أضعف مركزهم فى العمليات الحربية ضد الأنصار فإن الأمر انتهى بتشتت الجمع وانفرط عقد الحامية وانقسمت إلى ثلاثة مجموعات رئيسية: مجموعة كبيرة من المتمردين تجمعوا تحت قيادة فضل المولى الأمن وعسكروا فى التلال المجاورة لوادلاى انتظاراً لوضوح الموقف، ومجموعة ثانية من الموالين لأمين صحبوا ستانلى فى عودته إلى القاهرة، ومجموعة ثالثة من الموالين الذين فاتتهم قافلة الاتحاد وكانوا بقيادة سليم مطر . وقد بقى هؤلاء فى كافللى على بحيرة البرت انتظار الوصول تجدة أخرى.(١٧)

× × ×

وكانت مصر فى إبان ذلك تعمل على إعادة بناء قوتها الحربية وتنظيم فرق الجهادية وفق ما خطط لها الانجليز. وكان يهمها عودة رجال أورطتى الجهادية من خط الاستواء. فلما تأخرت عودة ستابلى فكرت فى تجنيد الصالحين من السودانيين الموجودين فى مصر. وقد خصصت فى التنظيم الجديد أربع أورط للجهادية وهى الأورط التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة. وأصدر سردار الجيش المصرى بالقاهرة " إعلانات " للسودانيين يغريهم بالتطوع فى الجيش المصرى أو العودة إلى التطوع إن كانوا قد سرحوا من قبل، ووعدهم بأنهم سوف " يستقبلون بإعزاز فى حلفه وكوروسكو وأصوان ودراوى ومصر وسواكن"(١٨) .

والوثائق تمدنا بمعلومات طيبة عن عملية تجنيد مصر للسودانيين فى الأورط الأربع. كان التطوع لمدة أربع سنوات للعمل فى مصر أو خارجها. وقد نص عقد التطوع على التعيينات اليومية والمرتبات الشهرية والملابس السنوية، كما نص على التعويض للورثة عند الوفاة(١٩).

وقد حرص السردار فى تقريره الذى رفعه إلى مجلس الوزراء المصرى على

تحـديد نوع الجندى الجـهـادى المطلوب وحـذر من الخلط بين السـودانيـين المولدين وبين الزنوج من أبناء القبائل السودانية، مشيراً إلى أن حاجة الجيش الحقيقية هى للسودانيين من سكان المناطق الاستوائية(٢٠).

وأخذ أورط الجهادية بالجيش المصرى تستكمل عدداً وعدة وأرسلت فصائل منها إلى حلفا وبعضا إلى سواكن ز وعندما عاد ستانلى بشرازم الجهادية من خط الاستواء ألحق الصالحون منهم بالأورط سالفة الذكر.

(٣)

التنافس بين الألمان والانجليز بشأن تجنيد السودانيين بالقاهرة

بدأت علاقة الانجليز بأوغنده عندما كشفها الرحالة سبيك فى عام ١٨٥٨، ضمن المحاولات التى شجعتها الحكومة المصرية فى ذلك الحين للكشف عن أعالي النيل ومنابعه. ثم توالت رحلات الكشف حتى تام ستانلى فى ١٨٧٥ برحلة كانت لها نتائج خطيرة لا بالنسبة لكشف أوغنده فحسب ولكن بالنسبة لنشر المسيحية وتمهيد تلك البلاد للسيطرة البريطانية، مما ترتب عليه تغيير الأوضاع والتمهيد للأحداث التى شكلت تاريخ أوغنده كمجموعة من المماليك المستقلة، ثم كبلاد تحت حماية شركة أفريقية الشرقية الإمبراطورية البريطانية، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تصبح إحدى مستعمرات التاج البريطانى.

ولعبت ستانلى بدهائه دور المستكشف والمبشر واستطاع أن يفسد إسلام أمتيسا ملك أوغنده فاعتنق البروتستنتية ، ولا عجب فى ذلك لأن الفترة بلاتى نتكلم عنها كانت فترة عصيبة فى تاريخ ذلك الجزء من افريقية، وفترة رجراجة غير مستقرة فى تريه الأديان. تستدل على ذلك من تصرفات أمتيسا ومن بعده ابنه موانجا، إذ كانا لا يستقران على عقيدة واحدة(٢١). وأصبحت البلاد ميدانا لنشاط الجمعيات المسيحية التبشيرية من بروتستنتية وكاثوليكية فضلا عن نشاط الأحزاب الوثنية والإسلامية. وأصبح للعقيدة الدينية أكبر الأثر فى تشكيل أحداث أوعند وكاد التنافس بين هذه الجماعات يؤدى بأوغنده إلى حرب أهلية.

ولم تكن أحداث أوغنده لتمر دون أن تستلفت أنظار الألمان فى تنجانيفا حيث افريقية الشرقية الإمبراطورية الألمانية، أو أنظار البريطانيين فى زنجبار

وكينيا، بل أن غنده بموقعها على الهضبة التى تضم البحيرات الاستوائية ومنابع النيل الرئيسية كانت قد اكتسبت أهمية إستراتيجية نتيجة للأحداث الخارجية التى كانت تدور فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقية أعنى مصر، وفى الجزء الجنوبى من وادى النيل حيث حركة المهدية ، فضلا عن النشاط الفونسى زالبلجيكى فى أعالى وادى النيل.

على ذلك لم يعد اهتمام الألمان والبريطانيين بأوغنده مجرد اهتمام تجار بمناطق خامات وثروات طبيعية، ولم يعد اهتمامهم قاصرا على نشر المسيحية وحمايتها وإنما أخذوا يهتمون بالعمل على تثبيت أقدامهم فى ذلك الموقع الاستراتيجى حتى يتمكنوا من وقف تقدم المهديةإذا حدث وهددت أوغنده ، حتى يتخذوا من أوغنده قاعدة للتقدم والهجوم لطرد المهدية وتدميرها والقضاء عليها متى ساءت أحوالا وعجزت عن التقدم. وهذا يتطلب احتلال أوغنده وضمها للتاج البريطانى باعتباره أقاليم جديد غنية بالثروات الطبيعية من جهة، ومن جهة أخرى تصبح يحكم موقعها حلقة اتصال تربط الأملاك البريطانية فى جنوب افريقية بالاحتلال البريطانى فى الشمال، فى مصر.

وعمل كل من الانجليز والألمان على تحقيق أغراضهم، فبادرت شركة شرق أفريقية الامبراطورية البريطانية إلى إرسال قافلة للصداقة على رأسها الضابط البريطانى جاكسون فتفاهم مع ملك أوغنده على قبول العلم البريطانى كعربون للصداقة. واعتبر جاسون أن قبول الملك للعلم البريطانى بمثابة اعتراف من جانب بدخوله تحت حماية الشركة.

وفى نفس الوقت كانت هناك حملة ألمانية قوية بقيادة الدكتور بيتر تسرع إلى أوعندة واستطاع بيتر أن يعقد مع الملك معاهدة صداقة، وفى ظنه أن مثل تلك المعاهدة تعبد الطريق أمام ألمانيا لاحتلال أوغندة(٢٢)

× × ×

وكانت الحملة الألمانية نذيراً من النذر التى جعلت الشركة البريطانية تفكر تفكيراً جديا فى تعديل موقعها من أوغندة وذلك بقطع الطريق على المنافسة الألمانية واحكام قبضتها أكثر من قبل على تلك البلاد.

ولم تكن الرغبة فى قطع السبيل على الألمان حتى لا ينافسوا الانجليز فى أوغندة هلا السبب الوحيد الذى حدا بالشركة إلى تقرير التدخل فى شئون أوغندة بارسال حملة بقيادة لوجارد، ولم يكن الهدف التجاري الذى يتمثل فى الحصول على العاج والملح من بحيرة كيبير وهو الذى أسال لعاب لوجارد وألهب خياله ودفهة إلى إغراء الشركة بالموافقة على إرسال الحملة هو الهدف الوحيد من الحملة ، ولم تكن حماية المسحين من بروتسنت وكاثوليك السبب الرئيسى لملك الحملة، وإنما كانت هناك عوامل أهم من ذلك وأعتق ، عوامل ئتعلق بمستقبل الإمبراطورية البريطانية فى ذلك الجزء من افريقية.

وكانت الخطوط العريضة للسياسة البريطانية الجديدة ترسم فى وزارة الخارجية الحرب البريطانية وفى سرداراية الجيش المصرى بالقاهرة حيث يجثم فوقها الاحتلالالبريطانى وتتلاعب بمصيرها أيدى البريطانيين ، كما كانت تجمع لهما المعلومات عن طريق المخابرات فى مصر ، يرأسها فى ذلك الوقت ونجت Wingateوهذه الخطوط العريضة كانت تقوم على محورين: الأول ، سرعة احتلال أوغندة واتخاذها قاعدة لدفع خطر المهدية ثم الهجوم على السودان وإعادة احتلاله. والمحور الثانى ، إخلاء المنطقة الاستوائية من الإدارة المصرية والاورط المصرية حتى تستطيع بريطانيا أن تتصرف وفق السياسة التى رسمتها فى اغتصاب هذا الجزء أو المساومة مع الدول الأخرى بشأنه.

وقد كتب قنصل بريطانيا فى زنزبار تقريراً لمس فيه بعض جوانب الموضوع فقال " عندما كنت فى زنزبار موظفا تابعا لوزارة الخارجية فى عامى ١٨٨٥/١٨٨٦، تقدمت بمشروع أقترح فيه إرسال مدد من السلاح والذخيرة مع عدد من الضباط الانجليز الأكفاء إلى أمين باشا الذى الحين بقصد تجنيد قوة مسلحة من الأهالى الزنوج بتلك الأقاليم، لصد الغزو المهدوى المحتل ودفع الأنصار إلى الخرطوم ... ولا زلت اعتقد فى جدوى تنفيذ المشروع نظراً للصفات الحربية الممتازة التى يتصف بها الزنوج فى أعالى النيل والتى يتحلى بها جنود الأورط السودانية بالجيش المصرى ... ونحن لا يتطرق الينا أى شك فى أن أية دولة تحتل أوعندة يجب أن تجعل نصب عينيها التحكم فى أنيورو .... وبذلك تمتلك موقعا هاماً تشرف منه على جميع البحيرات (الاستوائية) وتتحكم

منه فى منابع النيل(٢٣) . كما نلمس نفس الفكرة فى تقرير كتبه ونجت مدير مخابرات الجيش المصرى جاء فى " أن أية قوة حربية نرسلها إلى أوغندة بعد تجهيزها تجهيزاً كاملا بالسلاح والذخيرة تستطيع أن تتقدم شمالا عبر المديريات الاستوائية المصرية وتعاون عسكرية فعالة إذا حدث وعاد المهديون إلى محاولة تنفيذ مشروع غزو مصر أو تقرر وضع نهاية للفوضى والعبودية التى تسود الآن فى السودان"(٢٤).

الكابتن وليمز وتجنيد الجهادية للخدمة فى أوغندة:

وفى ضوء الظروف السابقة واستجابة للعوامل التى أشرنا إليها، كان لابد من حملة بريطانية إلى أوغندة، تمكن الشركة من إحكام قبضتها على البلاد. لذلك عينت الشركة الكابتن لوجارد على رأس حملة فى أغسطس ١٨٩٠, ثم عينت الكابتن وليمز مساعداً له.وكان أغندة فى ذلك الحين على شفا حرب أهلية، وتبين لوجارد أن مشكلته الأولى توفير الجنود الصالحين المدربين، ذلك لأن جنوده من الزنزباريين والسواحيليين لم يكونوا أندادا للعمليات الحربية لتى رسم خطته من أجل تنفيذها. ولذلك قرر أن يعمل على توفير الجندى الصالح قبل أن يقدم على التدخل الحربى، واتجه بخاطره نحو القاهرة حيث الجهادية المدرية. ولذلك أرسل مساعدة الكابتن ولمز إلى القاهرة ليجند أكبر عدد ممكن من الجنود السودانيين للخدمة فى أوغنده.

وقد وليمز إلى القاهرة فى يونية ١٨٩٠ وبدأ مهمته على الفور ، واتصل بالمسئولين البريطانيين وخاصة سردار الجيش المصرى ومدير المخابرات وتدل المكاتبات الرسمية على أن وليمز كان موضع ترحيب الجميع، وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب أو يثير الدهشة فمن الطبيعى أن يرحب البريطانى المحتل فى مصر ببريطانى آخر يعمل لاستعمار أوغندة، ولكن ما يدعو إلى العجب حقا ويثير الدهشة يسخر الانجليز فى مصر مصلحة من مصالح الحكومة المصرية، جعلت أمانة فى عنقهم، لخدمة أغراضهم الاستعمارية فى أوغندة، وبدون تكليف من الحكومة المصرية، وبذلك خانوا الأمانة. يكشف هذا السر خطاب مرسل من " مدير مصلحة الرقيق " إلى مدير مخابرات الجيش المصرى جاء فيه " أن الضباط والعساكر الذين تعينوا إلى جهة الزنجبار مع جناب البوزباشى وليمس

كان صار جمعهم بمعرفة رجال المصلحة وغيرهم بصفة غير رسمية من نوع المساعدة ليس إلا "(٢٥). كما أن الرسائل المتبادلة بين وليمز وونجت، وبين ونجت ومدير مصلحة الرقيق تكشف عن " نوع المساعدة التى بذلت لهذا الغرض . فقد أوفدت مصلحة الرقيق جنودها وصف الضباط بها يجوبون مديريات الغربية والقليوبية والشرقية بحثا عن السودانيين الصالحين للجندية. وأخذ هؤلاء يترصدون السودانيين فى الأسواق المحلية الأسبوعية يغرونهم بالتطوع للخدمة فى أوغندة. وكان وليمز دائم النشاط والتجول فى تلك المناطق يشرف على العملية ويسهم فيها(٢٦).

ولا ندرى بالضبط هل كانت عملية التطوع تتم بطريقة سليمة ، أى بإفادة المتطوعين عن الغرض الأساسى من تطوعهم وهو خدمة الشركة فى مشروعاتها الحربية فى أوعندة وغيرها، أم أن هذا الغرض بقى سرا فى نفس يعقوب بينما كانوا يصرحون لهم بغرض آخر.أكبر الظن أنهم كانوا يموهون عليهم ويصرحون بأن القصد من التطوع هو إنجاد بقية الجهادية التى فاتتها قافلة ستانلى مع سليم مطر. يرجح هذا الظن ما ذكره أحد المتطوعين العائدين من أوغندة وهو الاونباشى سرور خليل فى تقرير رفعة إلى مدير المخابرات وقد أدلى بأقواله أمام نعوم شقير فقال " كنت توجهت من مصر أونباشى مع شكرى أفندى يوزباشى من طرف دولة انجلتيرة على ذمة فتوح طريق خط الاستوى وحضور العساكر المحبوسة هناك ..."(٢٧). إن مثل هذا التقرير يؤكد ما كان يحدث من ترير بالمتطوعين أو على الأقل فإنه يدل على مدى فهم المتطوعين للمهمة التى تطوعوا من أجلها.

وبعد هذه الجهود الجبارة التى بذلها وليمز بالقاهرة واستغرقت النصف الثانى من عام ١٨٩٠، وجند لها الانجليز فى مصر جهود جنو لها الانجليز فى مصر جهود جنود وضباط مخابرات الجيش المصرى ومصلحة القيق، غادر وليمز القاهرة إلى أوغندة ومعه فصيلتان من السودانيين برياسة اليوزباشى شكرى أفندى من مهاجرى الاستوائية والملازم ثانى رزق الله افندى سيدهم من ضباط الأورطة التاسعة ، على رأس مائتى جهادي من ضباط الصف والجنود.(٢٨)

لوجارد وتجنيد سليم مطر وجهاديته:

وكان لوجارد قد سار على رأس حملة من ممباسا فى أغسطس ١٨٩٠، وهو يأمل أن يلحقه وليمز بالمجندين السودانيين من مصر، فوصل أوغندة فى ديسمبر من نفس العام ليجد البلاد على شفا حرب أهلية نتيجة التنافس المرير بين جماعات الكاثوليك والبروتستنت والمسلمين والوثنيين، وزاد الأمر سوءاً عدم استقرار الملك فى سياسته بحاه هذه الجامعات فضلا عن العداء العميق الجذور بين شعبى الباغندة والبانورو. ورغم أن ملك أوغندة كانيدعى حق السيادة على اينورو، فإن ملك أينورو لم يكن لقمة سهلة فقد كان لدية جيش كبير يضم بين رجالة عدداً لا بأس به من جهادية الجيش المصرى الذين كانوا يفرون منه بين الحين والحين.(٢٩)

وقد لعب لوجارد دور السياسى الدبلوماسى قبل أن يلعب دور المحارب المستعمر، وبذل جهودا جبارة فى سبيل تحقيق السلام فى أوغندة ولكن على أساس سيادة البروتستانت والقضاء على نفوذ المسلمين. وعندما وصل الكابتن وليمز فى يناير ١٨٩١ على رأس مدد من الجهادية السودانيين والذخيرة، بدأ لوجارد أعماله الحربية فأقام عددا من الحصون لتأمين الحدود بين أوغندة وأينورو، حيث لجأ المسلمون، ولما اطمأن إلى سلامة مركزه وتجهيزاته أراد أن يتخذ من موانجا ملك أوغندة مخلب قط فحرض على إعلان الحرب ضد كباريجا ملك أينورو حامى المسلمين. وجهز الملك موانجا جيشا بقيادة وزيره الأول . واشترك لوجارد فى الحملة بتجريده بلفت عدتها ٣٠٠ محارب من السودانيين والصوماليين على رأسهم ٤ ضباط من الانجليز. وبعد مفاوضات فاشلة، دارت رحى معركة حامية على الحدود تمت فيها هزيمة المسلمين وبذلك رسخت أقدام لوجارد والشركة التى يمثلها فى أوغندة.(٣٠)

وبعد أن نجح لوجارد فى الخطوة الأولى من المشروع الكبير بتثبيت أقدام الشركة فى أوغندة ، أهذ يفكر فى الخطوة الثانية وهى خطوة أساسية للمشروع البريطانى الكبير فى احتلال أوغندة والوصول عن طريقها إلى وادى النيل : إما لصد المهدية أو اقتطاع المديريات الاستوائية. وكان تنفيذ هذه الخطوة يتطلب إنشاء عدة حصون تكون بمثابة محطات عسكرية حول أينورو من الجنوب

والغرب، بعد أن أقام حصونا فى الشرق وذلك لحماية أوغندة من جهة ولتيسير عملية احتلال أينورو من جهة أخرى فضلا عن تمهيد طريق المرور من أوغندة إلى وادى النيل.

ولكن كيف السبيل إلى توفير القوات اللازمة لهذه العمليات الحربية كلها؟ وكيف يمكن تدبير الحاميات اللازمة للحصون؟ وكيف يمكن إعداد الجيش الضخم الذى يصلح للتقدم نحو النيل لطرد المهدية واستعادة السودان؟ بل كيف يجهز القوات التى تمكن الشركة البريطانية من مواجهة أطماع الألمان والبلجيكيينم فى ذلك الجزء من أفريقية ؟

حقا لقد وفق وليمز فى تجنيد فصيلتين من السودانيين بالقاهرة ، ولكن الأعداد التى بقيت منهم كانت أقل مما تتطلبه حاجة الانجليز، فضلا عن المشقة والتكاليف الباهظة. فهل يمكن تدبير عدد آخر من الجهادية، بنفس الكفاية ولكن فى وقت أقصر وتكاليف أقل ؟

لقد كانت الظروف فى خدمة لوجارد وعلم من شأن الجهادية الذين فاتتهم قافلة ستانلى فى عودته إلى مصر، وما كان من تجمعهم تحت قيادة سليم مطر فى كاقللى حيث بقوا على ولاتهم للحكومة المصرية ينتظرون إرسال نجدة أخرى.

وداعبت الآمال خيال لوجارد؛ إن تجنيد هؤلاء الجهادية لحساب الشركة يقضى نهائيا على سائر المتاعب الناجمة من قلة الجند، كما يضمن الفوز لشركة فى أى مشروع حربى تقدم عليه.

ولم يضيع لوجارد Lugardوقتا طويلا، فما أن أبلغته إحدى طلائعه بأمر سليم مطر وجهاديته حتى اسرع ميمما شطر كافللى حيث عسكر مطر فوصلها فى ٦ سبتمبر ١٨٩٠ وهنا أحسنت الجهادية استقبال " وعملوا له التشريفة اللازمة" (٣١) . وجرت بين الطرفين محادثات عرض فيها لوجارد على سليم أن ينضم برجاله لخدمة شركة افريقية الشرقية البريطانية، فاعتذر سليم عن عدم بأنه لازال فى خدمة الحكومة المصرية ولا يمكن التخلى عن ولائه لها أو العمل تحت راية أخرى ما لم تأذن له الحكومة . وأخيراً وصل الطرفان إلى حل وسط :

أن يرسل لوجارد من جانب يستأذن المصرية فى الحصول عل خدمة سليم مطر من الجهادية، ويتعهد فى نفس الوقت أن يساعدهم فى الوصول إلى الساحل فى طريقهم إلى مصر إذا رفضت الحكومة إجابة ملتمسه؛ بينما وافق سليم على أن يدخل هو وجنوده فى خدمة الشركة بصفة مؤقتة حتى ترسل الحكومة المصرية رداً قاطعاً يجدد موقفهم، واستطاع لوجارد بهذه الحركة البارعة أن يضمن للشركة خدمات حوالى ١٠٠٠ جهادى بسلاحهم وذخيرتهم . وقد علق الاميرالاى ونجت مدير المخابرات فى الجيش المصرى على هذا الاتفاق بقولة " لقد أفادت هذه الاتفاقية كلا من الطرفين المتعاقدين، فقد وفق الكابتن لوجارد على ما يبدو بمساعدة الجنود المصريين فى تدعيم سلطة الشركة فى أوغندة، بينما اعتقد سليم بطبيعة الحال أنه قد أدى واجبه فى الاحتفاظ ببقايا الحامية الاستوائية وضمن عودتهم إلى مصر، ثم هو قد أسهم فى نفس الوقت فى تنفيذ ما كان يتصوره مشروعات مصرية انجليزية(٣٢).

وبفضل جهود القوة الجديدة أقام لوجارد ستة حصون جديدة لحماية الحدود ضد أينورو والمهدية وكانت حاميات الحصون من الجهادية. وبذلك هدأ باله من جهة الحدود وتفرغ لحل المشكلات الداخلية لأوغندة.

ولما كان لوجارد حريصا على الاحتفاظ بهذه القوة الحربية الممتازة، فقد كتب إلى الخديوى فى شأن الوافقة على تجنيدهم لخدمة الشركة، كما كتب سليم بك فى هذا الشأن. غير أن الوثائق لاتسعفنا إلا بخطاب من وليمز إلى ونجت وردت فيه إشارة إلى الخطابات سالفة الذكر جاء فيه:

" عزيزى ونجت

يصلك خطابى هذا فى نفس البريد الذى يحمل اليك خطاباً رسميا من لوجارد إلى الخديوى وخطابات من سليم بك الذى أحضره لوجارد من كافللى.. إن الأمور فى أوغندة تتجه نحو الاستقرار ولكن فى بطء، فإذا تحلينا بالصبر فسلوف تثمر جهودنا فى ذلك الجزء من جنوبى السودان. إن فى قبضتنا الآن جنوبى أينورو والإقليم الممتد حتى جبل رونزورى، فضلا عن بحيرة ألبرت والبرت ادوارد حيث أقمنا محطة للتحكم فى (كيبيرو) وهى البحيرة المالحة التى قال عنها ستانلى فى كتابه أنها تدر الخير للإقليم كما لو كانت منجم ذهب.

وبالإضافة إلى هذا فلدينا السودانيين من رجال سليم، وهم بقايا الأورطتين، ويبلغ عددهم ٨٠٠٠ من الأنفس وفيهم حوالى ٦٠٠ من الجنود من سائر الرتب. وقد وزعناهم فى الوقت الحاضر على خمس قرى محصنة فى أينورو حتى يصبحوا فى النهاية حاجزاً منيعاً يحمى تورو والبحيرة المالحة(٣٣). وقد حضر مع البك العجوز جنوده بالإضافة إلى بعض العمال الفنيين وبحارة الباخرة.... ابذل ما فى وسعك لتحصل على إذن لهؤلاء الرجال كى يدخلوا فى خدمة الشركة؛ إن نقل هذا العدد الضخم إلى مصر سوف يكلف كثيراً، ولن تتكون لهم فائدة إذا عادوا إلى مصر.

وعلى العكس من ذلك إذا حصل هؤلاء على إذن الخديوى بالعمل فى خدمة الشركة فلسوف يقنعون بذلك، ويصبحون عونا كبيراً لنا فى أى تقدم نحو خط الاستواء. وإنى لأشعر شعورا قويا بأن هذه المنطقة تقع فى دائرة المصالح البريطانية...".

ومما يدعو إلى العجب حقا أن أطماع الانجليز فى أوغندة لم تقتصر على هذه المئات من الجهادية المدربة فقط وإنما طمعوا أيضا فى أن تتولى الحكومة المصرية صرف رواتبهم وتعييناتهم، بل أنهم طلبوا استبدال أسلحة جديدة بما عناه يكون تألفا مما فى أيديهم من السلاح. ومن أجل ذلك استطرد وليمز يقول فى رسالته. " وإذا وافق الخديوى على أن يعطينا هؤلاء الرجال فلعله يقدم لنا مرتباتهم وتعييناتهم كلها أو بعضها، وإلا ففى وسعك أن تؤدى لنا عونا كبيرً إذا أرسلت لنا نسخة من اللوائح التى تنص على تحديد المرتبات ومرتب العائلة والملابس ....، ولعلك تستطيع أن ترسل إلينا أيضا كمية من البنادق من طراز رمنجتن بدلا مما بأيدى بعضهم من بنادق تالفة"(٣٤).

وهكذا حلول الانجليز فى أوغندة تدعيم نفوذهم ومد رقعة مستعمراتهم بسواعد الجهادية والأسلحة المصرية.

× × ×

محاولات الألمان:

والظروف التى واجهت الألمان فى شرق أفريقية كانت شبيهة بالظروف التى

واجهت الانجليز هناك: كلاهما كان يعمل لانشاء مستعمرات، وكلاهما بعمل للتوسع نحو الغرب، ونحو الشمال فى سباق نحو النيل. وكلاهما كانت تعوزه القوة الحربية المنظمة المدربة المسلحة. وفى سبيل توفير تلك القوة الحربية سلك كل منهما نفس التى سلكها الطرف الآخر وذلك بالحصول على الجهادية من القاهرة أو من الأورط السودانية بالجيش المصرى من حامية الاستواء.

وكانت القيادة الألمانية فى شرق افريقية أسبق من لوجارد والشركة البريطانية فى محاولة الحصول على سليم مطر ومن معه الجهادية وذلك عندما ارسلت محمد أمين مدير عموم خط الاستواء لهذا الغرض. وكان أمينا قد دخل فى خدمة الحكومة الألمانية بعد الفاجعة التى ألمت به وعوقته عن المضى مع ستانلى والجهادية إلى مصر(٣٥)، وكلف بالسعى لتجنيد السودانيين من فصيلة سليم بك. فسار مع فيتا حسان صيدلى المديرية السابق وبعض الزنزباريين تحت العلم الألمانى قاصدين كافللى. وفى يولية ١٨٩١ وصل إلى مشارف المعسكر حيث وجد سليم بك مع الجهادية وبعض الكتبة المصريين .

وخرج سليم بك وزملاؤه لمقدم أمين وقابلوه بالترحاب ظنا منهم أنه جاء لنجدتهم، ولم يلبث أمين أن صرح لهم بغرض الحقيقى فرفض سليم قائلا " إنه هو وجنوده من رعايا الحكومة المصرية وأنهم يعتبرون أنفسهم دائما فى خدمتها وعلى ذلك لا يستطيعون إجابة طلبة" وطافت بالمعسكر إشاعة مؤداها أن الحكومة المصرية غضبت على أمين بسبب تركه لبقية الحامية فطردته من خدمتها(٣٦)

لهذا لم يوفق أمين فى مهمته ، ولم يستطع إلا أن يغرى نفراً من الجند يعدون على أصابع اليد. وقد عثرنا على عدد من الوثائق تحكى قصة أمين مع من غرربهم من الجهادية، وهى تقارير كتبها الضباط والجنود الذين صحبوه ثم انفصلوا عنه وقد جاء عبضها على لسان سليم مطر بعد أن لجأ اليه هؤلاء يشكون من سوء معاملة أمين لهم.

وهلاصة هذه التقارير أن أمينا تحايل على " بعض الخدمة وأخذهم معه بوجه المغشوشية حالة كونه يوصلهم إلى الحكومة الخديوية" . ولكن بدى من ذلك أخذ يعد العدة للتوده إلى الكونغو حتى لقد أصبح " مشبوه لنا أنه متوجه

إلى جهة الكنجوا" . وبعد عدة أشهر من المشقة والجهد وتفشى مرضى الجدرى، تردد أمين بين السماح لهم بالذهاب إلى أوغنده أو إرسال الأصحاب منهم إلى " الطوابى تعلق الجرمل" أى الجرمان ؛ أو المضى فى طريقه غربا نحو الكونغو(٣٧).

ورغم أن أمينا كان على علاقات طيبة مع رؤساء القبائل يمدونه بكل ما يلزمه من المئونة والحمالين ويسمحون له بالمرور فى أقاليمهم، إلا أن علاقته برجال الحملة من الجهادية كانت سيئة للغاية حتى لقد نمى إلى عمله" بأن هناك مؤامرة بين الضباط والجند ضده وأن المتآمرين قرروا مهماجمة منزله ومصادرة البضائع والذخيرة... ثم اللحاق بإخوانهم." فما كان منه إلا أن توقف عن السير وجمع الضباط والجنود وأخبرهم بوقوفه على المؤامرة وأبنهم. وقد جاء تفصيل تلك الأحداث فى رسالة بعث بها اليوزباشى ريحان أغا راشد والملازم أول أبو بكر أغا محمد إلى سليم مطر فى أوغندة.

والعبارات الواردة بالرسالة تلقى بعض الضوء على الموقف بحيث موقف كل من أمين والجهادية . أما أمين فكان يعتقد " أن الدنيا صارت حرية" فلا يربطه أو يربط الجهادية أى التزام نحو الحكومة المصرية. غير أنه حاول استغلال هؤلاء الجهادية فلم يعطهم رواتب ولا تعيينات، فما كان من ضباط الجهادية إلا أن ردوا عليه حجته بقولهم " فنا دامتا الدنيا صارت حرية فهنا لم فيه مجبورية على السفر بدون ماهية". ولم يلبث أن طردهم من حضرته وقال لهم " خذوا أولادكم والعساكر ولا تعقدوا عندى أبدا ولا لكى شئ عندى..."(٣٨)

إن الحقد الذى كانت تفيض به نفس أمين على الجهادية، ومعاملته السيئة لهم، جعلتهم يشعرون أنهم فى حالة ضياع فأرسلوا يلتمسون من سليم أن يرسل من يقودهم إليه فى أوغندة وهكذا أخفق أمين فى مهمته . ولم تلبث حياته أن انتهت نهاية غامضة، فقد قتل فى قلب الغابة وتشتت حملته وانتهى ذكره.

ويسمان وتجنيد السودانيين من القاهرة:

إن الفشل الذى صادفه محمد أمين حتم على القيادة الألمانية فى افريقية الشرقية الامبراطورية أن تدبر أمر الحصول على مزيد من الجهادية بطريقة

أخرى وتطلعت إليالقاهرة. من أجل ذلك اتصلت الحكومة الألمانية من برلين بقنصلها العام فى مصر وهو المستر هلفج Helwigبقصد استئذان الحكومة المصرية فى تجنيد ٣٠٠ من السودانيين للعمل فى خدمة القيادة الألمانية فى شرق افريقية. واتصل القنصل بدوره بوزارة الخارجية المصرية وحصل منها على الاذن المطلوب. وقد اشترطت الحكومة المصرية أن يقتصر تجنيد هؤلاء السودانيين على الموجودين منهم فى القاهرة والإسكندرية دون الأقليم، وأن لا يكونوا من رجال الجيش العامل ولا تضمهم كشوف التجنيد فى وزارة الحربية.

وضمانا لسلامة الإجراءات والتحقيق من شخصية المتطوعين، فقد احتفظ الحكومة المصرية لنفسها بحق التفتيش عليهم قبل السفر(٣٩).

وثمة ملاحظتان هامتان على هذه الشروط؛ الأولى أن السودانيين الموجودين بالقاهرة والاسكنرية يكونون عادة من أولئك الذين استغنى عنهم الجيش على اعتبار أنهم غير لائقين بعكس السودانيين الموجودين فى مدن الأقاليم(٤٠). وبينما كان وليمز ممثل الشركة البريطانية يجند السودانيين من مدن الأقاليم كطنطا وبنها والزقازيق، حيث يحتمل وجود خامات صالحة للجندية، إذا بالحكومة تحرم ذلك على الألمان، لغرض فى نفس الانجليز. وهذه التفرقة فى المعاملة تدل على محاباة الانجليز على حساب الألمان.

ولملاحظة الثانية تتعلق بالموقف السلبى الذى وقفته المخابرات فى مصر من بعثة ويسمان الألمانى بعكس موقفها من بعثة وليمز الانجليزى. فعندما جاء ويسمان إلى القاهرة لتنفيذ العملية، قابل وزير الخارجية المصرية صباح ١٦ أكتوبر ١٨٩١ للتحية والاستفسار عن الجهة التى ينبغى أن يتصل بها لتزويده بالمعلومات التى تساعده على انجاز مهمته(٤١). غير أن الترحيب الذى لاقاه وليمز الانجليزى من المخابرات ومصلحة للرقيق. والمعونة القيمة التى قدمتها له الجهات الرسمية لم يبذل شئ منها لويسمان الألمانى . وعلى العكس من ذلك وقف السردار ومدير المخابرات وهما بريطانيان موقفا سلبيا من ويسمان كما يبدو من رسالة أرسلها ونجت إلى السردار بهذه الشأن جاء فيها"... ليس هناك الآن مورد معين لتجنيد السودانيين فى مصر. إن المورد الذى يحصل منه الجيش المصرى على المجندين السود هو السودانيون، ولما كانت السودان فى

الوقت الحاضر مغلقة فى وجه مصر، فعلينا أن ننتظر حتى يتسرب بعض هؤلاء عبر الحدود ، وهذا امر يحدث عادة عندما تزحف قوة الدراويش إلى الشمال فتحصل على السودانيين اللائقين للتجنيد"(٤٢).

والوثائق التى تحت أيدينا تخلو من المعلومات التى تمكننا من معرفة ما تم فى هذا الموضوع، ومدى توفير ويسمان فى تجنيد العدد المتفق عليه من السودانين. ويغلب على الظن أنه لم يوفق إلى الحد الذى يرجوه نظراً للعراقيل التى أقامها الانجليز فى طريقه . ومما يرجح هذا الظن وجود وثائق أخرى تتحدث عن محاولات تالية لويسمان من أجل التجنيد، لم يظفر فيها باعداد قليله.

(٤)

قرار مصر بتحريم تجنيد السودانيين لخدمة دولة أجنبية

وخشى الانجليز فى مصر أن يوفق الألمان فى تجنيد مزيد من الجهادية السودانية لأن من شأن هذه الزيادة أن تيسر لهم تحقيق اطماعهم التوسعية فى شرق أفريقية وتمكنهم من التقدم نحو النيل فيعرقلون مشروعات التوسع البريطانية فى المنطقة الاستوائية ولذلك حاولوا من جانب قطع كل أمل للألمان فى تجنيد السودانيين من مصر. وتنفيذا لتلك المحاولة تقدم سردار الجيش المصرى بتقرير للعرض على مجلس الوزراء جاء فيه " ونظرا لتكرر تجنيد السودانيين للخدمة فى أقاليم مختلفة... فإنى أقترح على حكومة صاحب السمو أن تتخذ من الإجراءات ما تراه كفيلا بمنع تجنيد السودانيين للخدمة خارج الحدود المصرية فى المستقبل"(٤٣). وقد برر السردار اقتراحه السابق بقلة السودانيين الذين ينتمون إلى القبائل السودانية رغم حاجة مصر إلى الجهادية وهم عصب الأورط السودانية فى الجيش المصرى.

ولم تمض أيام ثلاثة حتى انعقد مجلس الوزراء المصرى لبحث هذا الموضوع. وبعد أن ناقش الاعتبارات التى أبدأها السردار فى تقرير المعروض على المجلس، قرر بجلسته المنعقدة فى يوم الخميس ٢٦ من نوفمبر ١٨٩١ " أن يمنع فى المستقبل تجنيد السودانيين من أجل الخدمة لحساب الدول

الأجنبية"(٤٤).

وقد يبدو السردار مخلصا فى توفير السودانيين للجيش المصرى، وقد يبدو اقتراحه بريئا لا يقصد به الألمان بالذات. عادلا يسوى بين الدول التحريم ولا يؤثر إحداها بيزة على الأخرى. وهذا حق إذا أخذنا الأمور بظواهرها. ولكن الآية تنعكس إذا علمنا أن لوجارد ممثل الشركة البريطانية كان قد استطاع فى يولية ١٨٩١- أى قبل تقديم اقتراح الردار بأربعة أشهر - أن يضم لخدمة الشركة مالا يقل عن ثمانمائة جهادى وعلى رأسهم سليم مطر وزملائه من الضباط والكتبة. فلم يعد الحصول على مزيد من الجهادية أمرايهم الانجليز بقدر ما اصبح حرمان الألمان من تجنيد السودانيين من القاهرة يشغل بالهم ويقض مضجعهم. ومن هنا تظهر حقيقة هدف السردار من اقتراحه.

(٥)

الألمان بالقاهرة وتجنيد السودانيين بصفة سرية

عندما أصدرت الحكومة المصرية قرارها بتحريم تجنيد السودانيين للعمل فى خدمة الدول الأجنبية، كانت القيادة الألمانية فى شرق أفريقية لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الجهادية. ولذلك فكرت فى أن تزاول عملية التجنيد بالقاهرة بصفة سرية، بعيداً عن عيون الحكومة المصرية ورقابتها. والوثائق التى تحت أيدينا تثبت تواطؤ القنصلية الألمانية بالقاهرة مع بعض المملاء من الوطنيين فى انجاز هذه العملية لحساب افريقية الشرقية الألمانية.

وبدأت القنصلية بأن تخيرت عميلا لها من سكان خى بولاق وهو " مهران زكى"(٤٥) واستطاع مهران أن يجند بعض السودانيين للخدمة فى افريقية الشرقية الألمانية، تذكر منهم الوثائق نجيب أفندى البقارى الضابط بالمعاش وسالم افندى وعبد الله شتا من ضباط الصف وقد رحلهم إلى السويس ومنها أبحروا إلى زنجبار(٤٦).

ورغم أن هذه العملية أفلتت من رقابة الحكومة ، إلا أنها سارت ببطء فلم تكف لمواجهة حاجة الألمان الملحة إلى السودانيين ولم ترض عنها سلطاتهم هناك. لذلك عهدت القيادة إلى الميجور ويسمان كى يتوجه مرة أخرى إلى

القاهرة ويعمل على تجنيد العدد الكافى من السودانيين بصفة سرية. وبالفعل توجه ويسمان إلى القاهرة فى شتاء ١٨٩٢ وصحب معه أحد الضباط السودانيين ممن جندهم فى المرة السابقة وهو الملازم سيد رخا(٤٧).

وفى القاهرة اتصل الميجور ويسمان بقنصل ألمانيا العام ورتبت العملية هذه المرة أيضا بحيث تتم فى الخفاء ودون أن تستلفت نظر المسئولين. واستمر عملية التجنيد فعلا أربعة أشهر . ولم تتنبة السلطات المصرية المسئولية إلا بعد مدة فثارت ثائرة السردار ومدير المخابرات ونجت.

وقد أنفضح أمر العملية فى الأيام الأولى من شهر أبريل ١٨٩٢ عندما قدم أحد رجال المخابرات المصرية تقرير الأسبوعى إلى نعوم شقير. ولم يكن التقرير مفصلا وإنما تضمن خبراً يتلخص فى أن أحد الأجانب يقوم بتجنيد السودانيين من حى العباسية للخدمة فى زنزبار، يساعد فى ذلك أحد مقاولى العمال من المصريين(٤٨).

وتعجب نعوم شقير وثارت ثائرة الانجليز فى الجيش والمخابرات ، لأن هذا العمل مخالف لقرار مجلس الوزراء من جهة ومن أخرى فإنه يتيح للألمان فرصة الحصول على السودانيين فتزيد الحربية فى أفريقية الشرقية وقد ترجح كفتهم فى تلك المناطق ويصبحوا أقدر على منافسة انجلترا فى سباقها نحو النيل.

وأرسل نعوم شقير المخبرين السريين فعادوا يؤكدون المسألة مع تفاصيل يفهم منها أن الضابط الألمانى الميجور ويسمان هو الذى يجند السودانيين للخدمة فى زنزبار. وأنه يزاول هذه العملية فى حى العباسية يعاونه فى ذلك سيد رها ووكيل أوربى وخادم له يدعى محمد البربرى كان فى خدمته بزنزبار مدة ثلاث سنوات.

وتوخت إدارة المخابرات الحيطة والحذر فى كشف الموضوع وكثر تردد المخبرين السريين على مقر التجنيد بحجة أنهم ضباط سابقين بالجيش المصرى ويرغبون فى التطوع لجهة زنجبار، فجاءوا بمزيد من التفصيلات عن نشاط سيد رخا، والأسلوب الذى يتبعه فى إغراء السوداقيين، إذ كان يدعوهم إلى منزله ويقدم لهم الخمر ويغريهم بالسفر إلى زنجبار حيث " المكاسب

الطيبة" فمن تطوع منهم أعطى جثيهان، أحدهما كمقدم والثانى ثمن تذكرة سفر وتشهيلات إلى السويس فضلا عن جراية يومية ثلاثة قروش . وقد فهم المخبرون أن أعداداً من السودانيين يجرى تسفيرها بالتدويج(٤٩).

ولم يعد ثمة بد من استدعاء سيد رخا لاستجوابه فاستدعاه رئيس إدارة البوليس السرى إلى ديوان المخابرات حيث حقق معه نعوم شقير. ولم يحاول سيد رخا أن يخفى شيئا،فمرد تاريخ حياته وتفاصيل العملية التى يقوم بها لحساب الألمان. ورفع الأمر إلى السردار فهدد سعيد رخا وأنذره بتقديمه إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى عالى إذا عاد إلى تجنيد السودانيين بعد ذلك٥٠,)

غير أن قصة تجنيد الألمان للسودانيين بالقاهرة ما كانت لتنتهى بتهديد سيد رخا أو بالتعهد الذى قطعه على نفسه، فقد كان هناك ويسمان ومساعده فضلا عن محمد البربرى.ولذلك عهد ونجت إلى نعوم شقير بتقصى الأمر وعمل التحريات بنفسه. وصدع نعوم بالأمر وزار سيد رخا بمنزله فى العباسية الشرقية فتأكدت لديه المعلومات التى وصلت إلى المخابرات من قبل، كما علم أن " ماهية النفر" تبلغ جنيهيز شهرياً يدفع أحدهما إلى أسرة المطوع بالقاهرة عن طريق القنصلية الألمانية، أما الثانى فيتسلمه المتطوع فى محل وجوده. وكان المتفق عليه أن يتسلم سيد افندى رخا استحقاقات الأسر كلها ثم يوزعها أو على وكلائهم بمقتضى كشف يوضح أسماءهم وذلك فى مقابل عملة خاصة تخصم من المرتب .

ولم يكتف نعوم شقير بزيارة سيد رخا بمنزله، وإنما زار أيضا اسر المتطوعين فى منطقتى حلة العرب بالوايلية الصغرى قرب محطة العباسية، وحلة رقم ١ بالعباسية. وقد ذكر شقير أسماء ١٦ سيدة ممن قابلهن، وكانت رواياتهن مطابقة لما ذكره سيد رخا، كما قابل هناك أحمد البربرى، فأكد نفس القصة، ظناً من هؤلاء جميعا أن نعوم شقير موفد من القنصلة الألمانية، كما أكد البربرى أن المتطوعين قد رحلوا إلى السويس وأنهم جميعاً وصلوا سالمين.(٥١)

كان على المخابرات بعد ذلك أن تعمل ، وأن تعمل فى حزم وسرعة لتحقيق ثلاثة أمور: الأول، حفظ الآسر التى سافر من يعولها. والثانية سرعة اتخاذ

الإجـراءات التى تمنع سـفـر هؤلاء المـجندين إن لم يكونوا قـد سـافـروا بعـد. والثالث، القضاء على هذه العملية وتحذير القائمين بها.

أمـا الاجـراء الأول فـيفهم من الاخطار الـذى أرسلته المـخـابرات " إلى جناب الخـواجـات برتشنايدر وشـركـاه" بالقـاهرة، لالغـاء التـوكيل المعطى لسـيـد رها بقبض" مـرتبات زوجات المـجندين السـودانيين الذى صـار تشـهيلهم إلى زنزبار" على أن تحل المخابرات محله فى هذه المهمة(٥٢).

ولمـا كـان الأمـر الثـانـى، وهو منع سـفـر المـجندين، بالـغ الأهمـيـة فقـد أبرق السـردار إلى مـحافظ السـويس بالبـحث عن المـجندين ولقض عليهم، والمـحـافظ بدوره كلف " مـعـاون بـوليس السـويس وناظـر قلم البـسـابورتات" بـالتنفـيـذ. وقـام الرجـلان بالبـحث والتـحرى والمـراقـبـة فكانوا يفـتشـون القطارات القـادمـة من القاهرة و " وابورات البستة الخديوية" المسافر من السويس، ورغم الدقة البالغة فلم تصل السلطات فى السويس إلى نتيجة تذكر(٥٣). وكتب مـحافظ السـويس يرد على السـردار بقوله إن رجـاله جميعـاً ملتقتين وعلى دم التيقظ للسـودانيين وعـدم تمكنهم من السـفـر خـارج القطر مـا لم يكن ذلك بتـصـريحـات من الحربية..."(٥٤).

ومن الطريف أن نعـوم شـقـيـر كتب تعليـقـاً سـاخـراً على خطاب المـحـافظ وأرسله إلى مـديـر المـخـابرات مـؤداه " إن سـيـد رها الذى جند هؤلاء الرجـال وأرسلهم من هنا يؤكد أن السـودانيين الذين نحن بصدد الكلام عنهم قد غادروا القاهرة فعلا إلى السويس. وأن مخبرينا السريين على استعداد لتقديم المزيد من التفصيلات"(٥٥).

وهذكا انتهت مهمة ويسمان بنجاح إلى حد ما، وإن كان الباب قد نهائيا أمام الألمان وغيرهم ولم يسمح لدولة أجنبية بتجنيد السودانيين من مصر.

(٦)

البلجيكيون فى الكونغو وتجنيد الجهادية المتمردة

وفى الجانب الغربى من المنطقة الاستوائية، فى حوض الكونغو، كان ثمة نشاط آخر يقوم به الكونغوليون لحساب الملك لبوبلد الثانى ملك البلجيكيين.

وكان ليوبلد فى ذلك الحين يمثل دور الشخصية الطموحة، ويطمع عن طريق التوسع الاقليمى فى افريقية أن تصبح دولته فى المرتبة الأولى بافريقية رغم كونها دول المرتبة الثانية فى أوربا. ومهد ليوبلد لنشاط الاستعمارى بإعلان تأسيس دولة الكونغو لحرة، ولم تلبث هذه أن أصبحت حقيقية دولية بفضل مؤتمر برلين , ١٨٨٤(٥٦)

وبدأ ليوبلد فى نشاطه الافريقى نبيلا يعمل لتشجيع الكشف الجغرافى وترقية العلوم وتمهيد مجاهل افريقية بذور لغرس بذور الحضارة الأوربية، فضلا عن الجانب الانسانى وهو " منع تجارة الرقيق وتحريره". وسار فى ذلك خطوات ثابته استغرقت منه عدة سنوات منذ كشف ستانلى حوض الكونغو الأدنى ١٨٧٤ حتى أعلن تكوين دولة الكونغو الحرة ١٨٨٤(٥٧). وخطط ليوبلد لنشاطه البرئ المظهر، الاستعمارى الجوهر يتقدم نحو هدفين: حوض الكزنغو بما فى ذلك كشف واستعماره، ووض النيل بما فى ذلك احتلال بحر الغزال والحصول على جهادية فضل المولى.

وفى حوض الكونغو بدأ التوسع على النحو الاستعمارى التقليدى وتضافرت جهود المستكشفين من أمثال ستانلى وشوينفرث ويونكر وكازاتى. مع جهود التجار والرأسماليين والقواد العسكريين من أمثال الضابط البلجيكى Thysالذى أسس شركة الكونغو للتجارة والصناعة فى ديسمبر ١٨٨٦ وشلمت مهمتها الكشف الجغرافى إلى جانب الأهداف التجارية والصناعية.

وفيما بين عامى ١٨٨٧ – ١٨٩٠ استطاع الضابط البلجيكى كابتن فان جيل Van Gèleوزملاؤه الكشف عن حوض نهر أوبانجى – ويلى من روافد الكونغو الرئيسية، حتى وصلوا إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو.(٥٨)

مشروعات ليوبلد النيلية:

ولا ندرى على وجه الدقة بدأت أطماع ليونلد فى وادى النيل، كان قد زار مصر فى عام ١٨٥٥، ثم تكررت زيارته لها فى عامى ١٨٦٢، , ١٨٦٤ ويقال أن هذه الزيارات قد أثارت اهتمامه بادى النيل. وزاد هذا الاهتمام وأصبح عاملا موجها فى سياسته الافريقية وخاصة منذ أن أدخل ضمن أهدافه مكافحة تجارة

الدقيق، وكان غردون ممن استعان بهم ليوبلد لهذا الغرض، فعينه فى حكومة الكونغو، وكلفه بتنظيم إدارتها والعمل على مكافحة الرقيق، وكان رأى غردون واضحا صريحا، فمن الضرورى لحكومة الكونغو أن تحتل مراكز فى بحر الغزال إذا أرادت أن " تقتلع تجاره الرقيق من جذورها(٥٩)". وارتاح ليوبلد إلى هذه النصيحة لأنها كانت تمثل رأى رجل مجرب خبر المسألة عندما كان حكمداراً عاما للسودان، كما كانت تتمشى مع الجماعة فى حوض النيل.

غير أن نشاطه الحربى فى حوض النيل كان يتطلب نشاطا سياسيا يؤمن فى ظله عملياته الحربية ويحدد بفضله موقف الكونغو من جيرانها من الدول الاستعمارية فعقد اتفاقيات مع كل من ألمانيا وفرنسا رسمت الحدود ومناطق النفوذ.

محاولة الإتفاق مع أمين باشا:

وكان ليوبلد يدرك أن توسعه نحو النيل يعرضه لخطر الاصطدام مع المهدية، والحاجز الوحيد الذى كان يفضل بينهما فى ذلك الحين هو مديرية عموم خط الاستواء المصرية ومديرها محمد أمين، وكانت الحكومة المصرية قد طلبت من محمد أمين إخلاء المديرية كجزء من الخطة العامة للانسحاب من السودان بصفة مؤقته، وعول ليوبلد على الصيد فى الماء العكر، وهداه تفكيره وأطماعه إلى يقترح على محمد أمين التخلى عن مديرية خط الاستواء لدوله الكونغو مقابل تعيينه محافظا عليها من قبل ملك البلجيكيين، وكان يأمل من وراء اقتراحه هذا تحقيق فوائد كثيرة: فالإقليم الذى كانت تشغله المديرية المصرية إنليم فسيح وفيه من الخيرات والإمكانات ما جعلهم يعتبرونه " جنة إفريقية" كما اشتهر حاكم المديرية بحسن علاقته بالوطنيين وخبرته بالإقليم على نطاق واسع. وكان من شأن هذا الاقتراح لو قبله محمد أمين أن يتيح لليوبلد خدمات أورطتين من الجهادية من خيره الجنود الإفريقيين المدربين بسلاحهم وذخيرتهم فيستطيع أن يدفع آماله دفعة قوية، وهذا فضلا عن أن المديرية سوف تصبح إقليما حاجزاً يدفع به عدوان المهدويين عن الكونغو إذا حدث وسولت لهم أنفسهم التقدم فى ذلك الإقليم بعد الاستيلاء على المديرية المصرية.

وحمل ستانلى هذا الاقتراح ضمن الاقتراحات التى عرضها على محمد أمين فى مايو ١٨٨٨ غير أن أمينا رفض هذا الغرض(٦٠). وليس مما يهم بحثنا هذا مناقشة العروض المختلفة التى عرضها ستانلى، ولا العوامل التى دفعت أمينا إلى تحديد موقفه من حملة ستانلى بصفة عامة، ومن هذه العروض بصفة خاصة، وإنما تهمنا الإشارة إلى أن الفض جعل ليوبلد يشعر بوجود ثغرة تعرضه لخطر المهدية فى المستقبل. فكان عليه إذن أن يعمل لتحقيق غرضين أساسيين : إقتطاع أكبر جزء من المديرية الاستوائية وإلحاق جهادية فضل المولى بخدمة دولة الكونغو وذلك لكى يحرم المهدية من خدماتهم فبضعف من قوتهم ويزيد من قوته.

وعمد ليوبلد إلى تامين نشاطه الحربى بالتمهيد له من الناحية السياسية، كعادته ومن ثم تم عقد معاهدة بين دولة الكونغو الحرة وبين الشركة الامبراطورية البريطانية لشرق إفريقية وهى التى عرفت فيما بعد باسم معاهدة ماكينون فى مايو ١٨٩٠, وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر اعتبار النيل من بحيرة البرت إلى مدينة لادو حداً بين أملاك دولة الكونغو الحرة وأملاك الشركة. وقد تعهدت الشركة بألا تقوم بأى نشاط سياسى غرب النيل حتى مدينة لادو شمالا وذلك إعترافا منها " بالحقوق الملكية " فى الأقاليم المحددة على النحو سالف الذكر.

اتصال الكونغوليين بجهادية فضل المولى:

وبعد أن اطمأن ليوبلد إلى موقف الفرنسيين والألمان والبريطانيين من مشروعاته نتيجة الاتفاقيات التى عقدت معهم، بدأ نشاطه الحربى واستأنف تقدمه نحو النيل .ففى ٣ أكتوبر ١٨٩٠ أرسل الكابتن فان كيركهوفن Van Kirk-hoven إلى الكونغو ليقود حملة تستهدف النيل عند وادلاى. ورسم فان كيركهوفن خطة على أساس التقدم فى حربتين: الحربة الأولى تمثلها حملة فرعية تبدأ من ستانلى بول والثانية حملة رئيسية بقيادته تبدأ من ليوبلدفيل واستغرقت الحملتان عاما ونصف عام حتى وصلنا إلى النيل قرب وادلاى (٤ فبراير ١٨٩١ – ١٠ أغسطس ١٨٩٢) قتل فى أثنائها قائد الحملة وتولى نائبه الملازم ميلز .Milzوما أن اقترب ميلز مشارف وادلاى حتى أخذ يبحث عن

فضل المولى ومن معه من الجهادية. وما أن علم بوجوده حتى بادر بتحرير رسالة إليه وصحبها بهدية، وعرض عليه صداقته وأخبره عن الهدايا التى أرسلها اليه وملأت ٨٠٠ صندوقا. ثم أخذ يغريه بالموافقة على الدخول فى خدمة الكونغو الحرة. ويذكرنا الدول الذى لعبه ميلز مع فضل المولى بالدور الذى سبق أن لعبه ستانلى مع أمين.

وقد لون ميلز فى خطابه أحداث أوربا باللون الذى يتفق مع غرضه بصرف النظر عن تعارض ذلك مع الحقائق التاريخية . فأخبره أن " مؤتمر أوربا الذى كان منعقداً فى برلين بحضور الدول " صرح لليوبلد أن يمتلك كافة بلاد " كونجو " وضواحيها وأن الحكومة المصرية تنازلت بالكلية عن السودان وتخلت عن جنودها ولن ترسل أيه نجدة أو حملةلإنجادهم، وبذلك فهم ليسوا تابعين لأيه دولة من الدول ومن حقهم الانضمام إلى من يشاءوا ثم طلب منه فى نهاية الخطاب أن يرسل إليه وفداً للمباحثة قبل أن يحضر لمقابلته فى وادلاى(٦١).

ولكى يتقن ميلز الدور الذى يقوم به كلف " ترجمانه " يعقوب افندى سليمان وهو مصرى التحق بخدمة الكونغو بأن يكتب فى نفس الامعنى(٦٢).

وفى ضوء الظروف التى كانت تحيط بفضل المولى ورجاله، استجاب لدعوة ميلز، وأرسل وفداً الضباط والكتبة على رأس البكباشى أحمد أغا على والبكباشى محمود افندى العجمى وكيل المديرية ومحمود صبرى كاتبها(٦٣).

وفى الاجتماع الذى تم بين ميلز ووفد الجهادية الخطوط الأساسية للاتفاق بين الطرفين، وذهب الجميع إلى بوره حيث معسكر فضل المولى وهناك تم عقد معاهدة اعترف فيها فضل المولى وزملاؤه السبعة من الضباط والكتبة بالاصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن كافة المستخدمين من ملكية وجهادية بقبول خدمة " حكومة كونجو المستقلة"مع الخضوع لقوانينها وأوامرها والعمل لمصلحتها، كما تعهدوا برفع علم " بيرق" تلك الحكومة.(٦٤)

ثم أبرم الطرفان عقداً " قونتراتو " وقعه ميلز وفضل المولى وزملاؤه، تضمن ثمانية بنود تحدد طبيعة التعاقد والمهمة المطلوبة من الجهادية، كما تحدد مدة التعاقد بسة واحدة قابلة للتجديد. وقد حرص ميلز فى العقد على أن ينص فى

البند الأول منه على تعهد الجهادية " برفع بنديرة " حكومة الكونجو المستقلة، وأن يقيموا فى المحطات التى تعينها لهم الحكومة. كما نص فى البند السابع على أن تقدم حكومة الكونغو لفضل المولى وجنوده المؤن والأسلحة والذخيرة(٦٥).

وبفضل هذا الاتفاق، استطاع ميلز أن يضم إلى جيش الكونغوليين مئات من الجهادية المدربة الجيدة التسليح ومن بدأ فى تنظيم قوته الجديدة؛ فأرسل فضل المولى ومعظم رجاله إلى دوفيله أى زحف مهدوى فى أعالى بحر الجبل، وأمر الملازم جستين Gustinالبلجيكى مع الجنود الكونغوليين بالبقاء فى محطة جاندة، ثم أمر بقية الجهادية وعددهم ١٥٠ جهادى وعلى رأسهم محمود أغا بأن يعسكروا شمالى جاندة.

وبعد أن حمى ميلز بإقامة خط دفاع ضد المهدية بفضل سواعد الجهادية أخذ يتابع توسعه وينشئ المحطات العسكرية ويقيم الحاميات، ثم عهد إلى الملازم ديلانج Delangeبقيادة المحطات بين النيل والكونغو فدخل تحت إشراف المولى ومحمود أغا وجستين (٦٦)

الاتفاق الثانى وتكوين بلوك رابع من الجهادية:

كان من شأن الخطة التى رسمها ميلز وعهد بتنفيذها إلى ديلانج الحاجة إلى مزيد من الجند، فى وقت عاد فيه المهديون إلى الاستعداد للزحف جنوباً، واقترب العقد من نهايته، بالإضافة إلى عدم رضا فضل المولى والجهادية عن قيادة ديلانج البلجيكى وعدم رغبة الجهادية فى تجديد العقد.

وما زاد الطين بلة أن المرتزقة غير النظاميين من الزاندى، الذين جندهم الكونغوليون راحوا ينهبون متى سنحت لهم الفرص وأفلت زمامهم فلم يعد البلجيكيون أو الكونغوليون قادرين على السيطرة عليهم، كما أن الأنصار بدأوايمهدون لغزو الجنوب فأرسلوا الجواسيس والعملاء لإثارة القبائل ضد طوابير الكونغوليين، بل أنهم حاولوا الاتصال بالجهادية حتى يتخلوا عن البلجيكيين وينحازوا إلى صفوف المهدية.

وفى مثل هذه الظروف احتاجت الكونغو الحرة إلى خدمات فضل المولى

ورجاله أكثر من أى وقت مضى. إلا أن العلاقة بين الجهادية والبلجيكيين كانت تمر فى مرحلةعدم ثقة فقد حدث بين الطرفين خلاف فى تفسير بنود العقد، وكان أساس الخلاف أن النص الفرنسى للعقد لم يشر إلى أمرين معمين: الأول، التزام حكومة الكونغو بتزويد الجهادية بالمؤن والسلاح والذخيرة، بينما نص على ذلك فى الأصل العربى. والأمر الثانى أن الترجمة الفرنسية نصت على عدم سريان العقد إلا بعد موافقة حكومة دولة الكونغو، بينما لم يرد النص فى الأصل العربى.

ورغم أن النص العربى هو الأصل والنص الفرنسى ترجمة له، فان ميلز تمسك بما جاء فى الترجمة الفرنسية رغم مخالفته للأصل العربى.

ولكى تقضى الدولة على هذه المشكلات وتفوز بخدمات الجهادية، استدعى الأمر تعيين بايرت البلجيكى فى القيادة بدلا من ديلانج. مع التمهيد لتجديد العقد وفق شروط أسخى وأوفق.

وموقف فضل المولى كان سليما لا غبار عليه، لأن العقد الذى بيده كان يفرض على الدولة أن تمد بالسلاح والذخيرة والمئونة، وقد رفضت الدولة هذا كله. فهل يلام عندما تخلى عن خدمة الدولة عند انتهاء العقد وأعلن نفسه " حر التصرف" ولم يعد يرفع علم الدولة الحرة، واتخذ من جاندة مركز لتجميع بلوكات الأورطة ونتيجة لهذه التحركات، جلت محطات الكونغوليين فى بحر الجبل وأصبح الميدان مفتوحا لتقدم الأنصار الذين وصلوا فى زحفهم إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو وعملوا على كسب الجهادية إلى صفهم .

قرر بايرت أن يحصل مرة أخرى على خدمات الجهادية وأن يبعدهم عن معسكر الأنصار بأى ثمن ومن ثم أصبح الجهادية فى موقف يستطيعون فيه إملاء الشروط التى تتفق مع مصلحتهم، أو بعبارة أدق تصحيح الأوضاع والأخطاء الماضية.

وقد بدا ذلك بوضوح فى " القونتراتو" الجديد الذى وقعه بايرت بالنيابة عن دولة الكونغو الحرةن وفضل المولى بك نيابة عن الجهادية بتاريخ أول يناير ١٨٩٤ والعقد الجديد فيه وضوح وفيه حسم وفيه تحديد دقيق لمهمة كل من

الطرفين وحقوقه وواجباته.

والعقد فى مجموعة يتكون من اثنى عشر بنداً : نص فيه على السلطة المطلق لفضل المولى على الجهادية دون تدخل اليلجيكيين أو الكونغوليين فى أعماله (بند ١، ٢، ٨) كما نص على إنشاء بلوك جديد رابع، وفى مقابل ذلك تدفع الدولة لفضل المولى ألفين من الجنيهات باسم البلوكات الثلاث القديمة وأربعمائة جنيه انجليزى للبلوك الرابع على أن يصرف نصفه نقدية ونصفة بضاعة مرة كل ستة أشهر (بند ١٠، ١١) وفضلا عن المبالغ سالفة الذكر ، تعهدت حكومة الكونغو بأن تقوم بصرف تعيينات شهرية لرؤساء البلوكات وكتابهم (بند ٩) . أما بخصوص السلاح، فقد نص فى البند السابع على أن تتولى دولة الكونغو تزويد الجهادية بالسلاح والذخيرة. وأخيراً جاء البند الثانى عشر وله مغزى عميق عندما تقرر فيه سريان العقد مهما كانت الظروف لمدة سنة تبدأ من أول يناير ١٨٩٤ سواء اعتمدت الحكومة نص العقد أم لم تعتمده(٦٧) .

حاتمه فضل المولى وتشتت الجهادية:

وبعد إبرام العقد فضل المولى وجهاديته أدراجهم إلى جاندة، بينما أخذ بايرت يدرس الموقف جيداً . كان يعلم أن البريطانيين يتحركون شمالا من أوغندة إلى بحر الجبل، كما كان يعلم قيادة الأنصار قد انتقلت إلى يد عربى دفع الله، وأن الأمير الجديد استطاع أن يقضى على المتاعب التى أضعفت فيما مضى من شأن الأنصار وعوقت تقدمهم وقللت من خطرهم، وأنه استطاع أن يوفق بين القوى الساخطة والقوى المتمردة ويحولها جميعاً إلى وحدة مقاتله ثم نقل قاعدته إلى الرجاف وحضها لتكون قاعدة يهجم منها على الجهادية.

ولذلك أصدر ايرت أمراً إلى فضل المولى بالتقدم إلى دوفيله وأن يرفع على الدولة الحرة قبل أن يسبقة إليها البريطانيون وشجعة بقوله "أنا متكل عليك وعلى جهاديتك العظيمة "، على أن يتقدم بعد ذلك فيحتل وادلاى بالسرعة الفائقة(٦٨) .

وأسرع فضل المولى إلى تنفيذ الأوامر، فغادر مقره الحصين فى جانده . وبينما هو فى طريقة إلى وادلاى فاجأه الأنصار وأجبروه على خو معركة لم يكن

مستعداً لهاز وبذلك درات عليه الدائرة واستشهد فضل المولى ومغظم الجهادية فى المعركة. ولم ينج منهم سوى ٢٠٠ جهادى شقوا طريقهم إلى وادلاى ومنها إلى كا?اللى (٦٩). وبذلك انتهت علاقة الجهادية بالكونغو الحرة. وكثير من الأوراق التى تلقى الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجهادية سقط فى يد الأنصار فى تلك الموقعة.

(٧)

الانجليز يرثون مصر فى قوتها العسكرية بخط الاستواء

وبينما كان فضل المولى وجهاديته فى محنة قبل المعركة التى استشهد فيها، كانت انجلترا بصدد التفكير فى تحديد موقفها من أوغنده . وبالفعل عينت السير جيرالد بورثال لفحص أحوالها وتقديم المقترحات الخاصة بالسياسة التى ينصح بها فى المستقبل. ومنحته الحكومة البريطانية سلطات واسعة وسمحت له بأعلان الحماية البريطانية ومن ثم ارتفع العلم البريطانى شهيداً على إهدار استقلال تلك البلاد.

وكان أول ما فكر فيه يورثال تنظيم القوة الحربية وقوامها بلوكات الجهادية التى يرأسها سليم مطر. وبادر فطلب من الحكومة البريطانية أن تتخير أربعة من الضباط البريطانيين ممن عملوا فى الخدمة بمصر فى أورط الجهادية ويلمون باللغة العربية، لقيادة بلوكات الجهادية التى سبق أن جندها لوجارد ووليمز؛ والتمس يورثال أن تكون رتبة أحد هؤلاء الضباط كبيرة حتى يمكن أن يعهد إليه بحكم أوغندة فى المستقبل. وقد اهتارت الحكومة البريطانية أربعة من الضباط الانجليزى ممن سبق لهم العمل فى مصر. وكان على رأسهم الكولونيل كول?ل Colvileوالكابتن ثرستن .Thruston

وبدأ كول?ل عمله فى نوفمبر ١٨٩٣، فأرسل تجريدات صغيرة لمد النفوذ البريطانى نحو النيل ومنابعة إلى الشمال والغرب . وفى يناير ١٨٩٤ استطاعت إحدى هذه الحملات أن نرفع العلم البريطانى على المحطة المصرية القديمة فى وادلاى. ولم تلبث أن تواترت الأخبار بوجود " عدد كبير من الزنوج المسلحين ومعهم رجل من البيض " فظن الانجليز أحد أمرين؛ فهم إما من الكونغوليين

وعلى رأسهم ضابط بلجيكى، وإما بقايا جنود فضل المولى من أورطة الجهادية بعد هزيمتها.(٧٠)

وكان على كول?ل أن يعمل بسرعة حفظاً لحقوق بريكانيا فى تلك المنطقة وفقاً للمعاهدة التى عقدوها مع الكونغوليين فى عام ١٨٩٠, فأرسل بعض الطلائع بقيادة الكابتن ترستن. وتأكد هذا من أمرهم عندما رأى العلم المصرى يرفرف على المعسكر وسمع الموسيقى تعزف السلام الخديوى .

وقص علينا ترستن قصة مقابلته مع ضباط الجهادية فقال " وقد حضر لمقابلتى أربعة ضباط من السودانيين متوسطى مقابلته مع ضباط الجهادية فقال " وقد حضر لمقابلتى أربعة ضباط من السودانيين متوسطى السن متشحين بثياب بيضاء نظيفة وأوصلونى إلى حديثة يانعة حيث قدمت لى القهرة، ثم عرفونى بزملائهم" . ثم قصوا عليه قصتهم منذ آن تركهم ستانلى حتى استشهاد فضل المولى وحلولهم بتلك المنطقة حيث اتخذ قائدهم البكباشى احمد أفندى على معسكره على التلال. ووجد ثرستن فرصته وقال لهم أن الكابتن بايرث قد أخطأ عندما رسم تحركاتهم فى هذه الجهة، لأنها تدخل فى أملاك انجلترا، وهو والحالة هذه لا يسمح لقوة مسلحة يظلها علم أجنبى أن تقيم فى هذه الأرض، اللهم إلا إذا انتظموا فى سلك الجندية فى خدمة بريطانيا. واتفق الطرفان على أن يرجع كل منهما إلى رئيسه: فذهب ثرستن لاستشارة كول?ل، كما رجع الضباط إلى البكباشى أحمد على وكان فى ذلك الوقت على رأس البلوك المعسكر فى الجبال(٧٠).

ولو نزلت على كول?ل مائدة من السماء، لما شعر بالسعادة التى بها عندما أنهى إليه ثرسنن بالخبر؛ فإن من شأن الحصول على بقايا رجال فضل المولى أن يضم قوة جديدة إلى قوة الجهادية الموجودة بقيادة سليم مطر وبذلك يتدعم نفوذ انجلترا فى محميتها الجديدة ويسهل تحقيق الآمال العريضة التى ينشدها الانجليز فى وادى النيل. وتسلح ثرستن فى عودته إلى الجهادية بكل ما يمهد له طريق النجاح فى مهمته. فصحب معه اليوزباشى السودانى ريحان أفندى راشد وهو ممن جندهم لوجارد فى المرة السابقة، وذلك لتيسير مهمة التفاهم مع الجهادية نظراً لكونه من الشخصيات المحبوبة المحترمة لديهم، كما أخذ معه

طربوشاً وعلامات الرتبة التى كان قد حازها فى الجيش المصرية وبراءة تلك الرتبة وذلك بالإضافة إلى علم مصر وآخر بريطانى.

وعندما وصل الرجلان إلى معسكر الجهادية استقبلا بالتشريفات المعتادة واجتمعا بالبكباشى أحمد على لبحث الشروط . وكان ثرستن قد درس شخصية أحمد على طريق المعلومات التى زوده بها ريحان فعلم أنه مستبد صلب الرأى يسيطر على جنوده وينصرف فيهم كما كان " ملكا" . فضلا عن ولائه العميق لمصر والحكومة المصرية، شأنه فى ذلك شأن بقية الجهادية. كما لا حظ ثرستن أنالجنود شديدو التعلق برایاتهم المصرية، فقد كانت الرايات المصرية تفوق فى عددها الرايات البلجيكية.

من أجل ذلك عول ثرستن على فراسته ولباقته وقوة حجته أكثر مما عول على أى شئ آخر وبادر إلى رفع علم مصر بجانب العلم البريطانى أمام خيمته، ثم خلع قبعته ووضع طربوشا فوق راسه وأخر من حقائبة براءة تعبينه ضابطا فى الجيش المصرى ووضعها فى جيبة لا ستخدامها فى الوقت المناسب.

وقد ذكر ثرستن فى مذكراته الخاصة نص الحوار دار بينه وبين أحمد على، واستخدم فيه الطريقة الأفلاطونية المعروفة فى إقناعه بأن المنطقة التى يعسكرون فيها ليست ملكا للبلجيكيين، وأن الخديوى لم يتنازل عن مديرية عموم خط الاستواء بل كلف الانجليز باحتلالها إلى أن يروق له استرجاعها. وهكذا زيف ثرستن الحقائق فى سبيل الوصول إلى خداع الجهادية.

ثم راح فة حواره الأفلاطونى يستدرج البكباشى أحمد على فوصل إلى أن كل " مسلم" فى الدولة العثمانية يعتبر السلطان بمنزلة خليفة الرسول وإمام المسلمين، فمن واجب " المسلم" أن يمتثل لأوامر السلطان أو نائبة، ولا يستجيب لأوامر ملك " نصرانى"، وبذلك تصبح طاعة الأمراء فرضا من فروض الإسلام. ولما كان " أفندينا" أحد هؤلاء فقد وجبت طاعته.

ولم يلبث ثرستن أن أخرج براءة تعيينه ضابطا فى الجيش المصرى وعليها بصمة الخديوى ووضعها على جبينه، ثم أعطاها لاحمد على وقال له " أقرأ أوامر أفندينا واعمل بها" فأخذ أحمد على البراءة وقرأها وقبل الختم ثم وضعها

على رأس احتراماً لها ثم ناولها للكاتب فقرر أنها براءة حقيقية وفعل بها مثل ما فعل أحمد على(٧٢)

ولم تمض ايام قلائل حتى كان هؤلاء الجهادية فى أوغندة يعملون إلى جانب جهادية سليم مطر فى خدمة العلم البريطانى.

وهكذا استطاعت انجلترا أن ترث مصر فى قوتها الحربية فى خط الاستواء بعد أن جندت لحسابها أورطتى الجهادية من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية.

× × ×

أن الجديد فى الوثائق المستخدمة فى هذا البحث هو توضيح التنافس المرير بين كل من انجلترا وألمانيا وبلجيكا وحكومة المهدية فى سبيل الحصول على أورطى الجهادية من حامية تلك المديرية وتفصيل الخدمات الهامة التى أداها رجالها فى ظل العلم البريطانى والألمانى والكونغولى، فضلا عن العلم المصرى ورايات المهدية؛ حتى لقد أصبحت هذه الأورط العموم الفقرى لجيوش تلك الدول فى إفريقية.

كما كشفت الوثائق عن الوجه الحقيقى لحملة الإنقاذ التى جاء ستانلى على رأسها؛ لأن أحداث الفترة تدل على أنستانلى كان يخفى تحت قناعه الأمريكى وجها إنجليزيا وآخر بلجيكى. وبين مصالح هؤلاء ضاعت مصالح البقية الباقية من رجال الجهادية وضاعت مصالح مصر وحقوقها فى خط الاستواء.

أن هذه الحقيقة تحتم إعادة النظر فيما كتبه المؤرخون عن حملة الإنقاذ من حيث أهدافها ونتائجها.

س حملة من ممباسا فى أغسطس ١٨٩٠، وهو يأملأن يلحقه وليمز بالمجندين السودانيين من مصر، فوصل أوغندة فى ديسمبر من نفس ا

الهوامش

٩-٣٣/١ مهدية ملف ٣ وثيقة ٧٢ من عمر صالح إلى الهليفة غاية الحجة ١٣٠٧ (١٨٨٩)
١٠- ٣٢/١ مهدية ملف ٩ وثيقة ٣٢ من المختار بكر إلى الخليفة ٢٢ القعدة ١٣١٠ (١٨٩٢).
١١-٣٣/١ مهدية ملف ٢ وثيقة ٢٧ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨).
١٢-٣٣/١ مهدية ملف ٢ وثيقة ٢٤ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨).
١٣- الوثيقة السابقة.
١٤- Wauters: Stanley's Emin Pasha Expedition. P. 86
١٥ -كان عدد المحطات غير ثابت ولكن عدد المراكز أكثر اتقرارا وهى مراكز رول، بور ، لادو، كيرى، دوفيلة، فوفيران فاديبك، لاتوكا، مكركه، منيوتو.
١٦-. Waauters: Stanley's Emin Pasha Expedition. P.p 135-136

وقد تحركت حملة ستانلى من لندن فى يناير ١٨٨٧ ومر على القاهرة ثم زنزبار حيثأبحر إلى الكونغو فى غرب أفريقية ولكنه لم يعد إلى القاهرة مع شراذم الجهادية إلا فى أوائل سنة ١٨٩٠
١٧- Sudan Intelligence eport No. 3P. 5

18-أعلان للسودانيين .Cairo Intelligence Reports: Carint 1/25127
19-المصدر السابق " كونتراتو لأجل عساكر أورطة السودانية المتطوعة".
٢٠- المصدر السابق - خطاب من سردار الجيش المصرى باشا فهمى رئيس مجلس الوزارة . بتاريخ ٢٣ نوفمبر , ١٨٩١
٢١-Cairo Inteligence Reports. 5/5 49. Uganda P.4 (Mtesa and wanga)

22-المصدر السابق ص ٦
٢٣- Cairint 5/5/49 No. 58.

24-المصدر السابق.
٢٥- Cairint 1/34 198رسالة من مدير مصلحة الرقيق إلى مدير المخابرات ٢ يونية ١٨٩٤ ,
٢٦- المصدر السابق - رسالة من وليمز إلى ونجت بتاريخ ١٠ يونية , ١٨٩٠
٢٧- ٧٣/٨٠ .Cairint 1/35 Dتقرير أونباشى سرور خليل.
٢٨- كانت الفصيلتان تضمان ضابطين ، ٣ باشجاوشية، ١٤ من الشاوشية، ٢٨ أونباشى

بخلاف الأنفار الجهادية كما جاء بالكشوف التى حررت بمعرفة " اليوزباشى" سيدهم السودانى بعد عودته من أوغندة إلى مصر. Cairint 1/34 198بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٩٣

٢٩- Casati: Ten Years in Equatoria ì pp. 60-62.

30- .Cairint 5.5.49. P.7

31- Cairint 1/35 D. 80/73.

32-

33-يقع إقليم تورو إلى الجنوب الغربى من أوغندة من أهم ثرواته العلمية الملح المستخرج من بحيرة كيبيرو وهو الثروة التى الهبت خيال لوجارد. أنظر -Furley: The Su danese Troops In Uganda P. 313

34- Cairint 1/34 198بتاريخ ١٦ يناير ,١٨٩٢

٣٥- عندما وصلت قافلة ستانلى برفقة أمين والجهادية إلى أمبابوا Umpapuaالألمانية فى طريقهم إلى الساحل أقام لهم الميجور ويسمان المندوب الامبراطورى فى أفريقية الألمانية الشرقية مأدبة حافلة وبعد انتهاء المأدبة كان أمين يتطلع من شرفة المنزل الذى كان يقضى فيه الليل. وفى حوالى منتصف الليل سقط من الشرفة وحمل إلى المستشفى ليقضى شهرين ومن ثم مضت الحملة فى طريقها وتخلف أمين عن اللحاق بها.

٣٦- Cairint 3/14 239 Repoprt on Equatoria

37- Cairint 1/35 206 D 8/55بتاريخ ١٨ أبريل ١٨٩٢

٣٨- المصدر السابق – رسالة بتاريخ ٧ مارس ١٨٩٢

٣٩- Cairint 1/33 185خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر , ١٨٩١

٤٠- Cairint 1/33 185رسالة من ونجت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر , ١٨٩١

٤١- Cairint 1/33 185خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر , ١٨٩١

٤٢- Cairint 1/33 185رسالة من ونجت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر , ١٨٩١

٤٣- Cairint 1/25 127تقرير مرفوع من السردار إلى رئيس مجلس الوزراء فى ٢٣ نوفمبر ١٨٩١ ,

٤٤- Cairint 1/25 127رسالة من مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار إلى وزير الحربية بتاريخ ٢٨ نوفمبر , ١٨٩١

٤٥- لم تسعفنا الوثائق بمعلومات كافية عن مهران زكى، ويفهم من بعضها أنه مقاول لتقديم العمال.

٤٦- Cairint 1/34 204وثيقة رقم ١٣ بتاريخ يونية ,١٨٩٢

٤٧- Cairint 1/34 204وثيقة رقم ٨ بتاريخ مايو ,١٨٩٢

٤٨- Cairint 1/34 204وثيقة رقم ١ بتاريخ ١٢أبريل ,١٨٩٢

٤٩- المصدر السابق - وثيقى رقم ٢ بتاريخ ١٩أبريل ١٨٩٢، رقم ٤ بتاريخ ٢٨ أبريل ١٨٩٢ ورقم ٥ بتاريخ ٢ مايو ,١٨٩٢

٥٠- Cairint 1/34 204وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢٣ مايو ,١٨٩٢

٥١- المصدر السابق - وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ يونية ١٨٩٢- وقد ذكر سيد رخا وأخمد البربرى أسماء ممن تطوعوا وسافروا.

٥٢- المصدر السابق - وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ١٨٩٢,/٥/٢٨ وواضح أن برتشايدر كان موكلا بتسليم الرواتب لسيد رخا من طرف القنصلية الألمانية.

٥٣- المصدر السابق - الوثيقتان رقم ٨ ، ٩ بتاريخ ٩، ١٠ مايو ١٨٩٢ على التوالى.

٥٤- نفس المصدر - وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ مايو ,١٨٩٢

٥٥- نفس المصدر - وثيقة رقم ١١ بتاريخ ١٦ مايو ,١٨٩٢

٥٦- قبل المؤتمر كانت ثلاث من الدول العظمى قد اعترفت " بحومة الكونغو" وإن لم تعترف " بدولة الكونغو". وهذه الدول هى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا.

٥٧- أفاضت كثير من الكتب فى تفصيل هذا النشاط ومن خيرها

Wauters: Etat Indépendant de Congo.

58- Sanderson: Leopoid 11. and the Nile Valley. P.17.

٥٩ - كان غوردون قد شغل منصب حكمدار عام السودان حتى عام ١٨٧٩، ثم استقال وعاد إلى انجلترا. ولم يلبث ليوبلد أن عينه فى حكومة الكونغو فى يناير ١٨٨٤ وذلك قبل أن يغود نهائيا إلى الخرطوم قبل مقتله فى يناير ,١٨٨٥

٦٠- Stanley : In Darkest Africa. V. I. P. 387.

61- 1/34مهدية وثيقة رقم ٩١ من نايب حكومة كونجو الحرة إلى قومندان خط الاستواى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ,١٨٩٢

٦٢- ٣٤/١ مهدية وثيقة رقم ١١٦ من يعقوب سليمان إلى قومندان خط الاستواى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ,١٨٩٢

٦٣- ٣٤/١ مهدية وثيقة رقم ٦٤ من فضل المولى إلى ميلز ردا على الرسالة سالفة الذكر - بدون تاريخ.

٦٤-٣٤/١ مهدية ملف ٣ وثيقة ٧٦ معاهدة بتاريخ ١٩ أكتوبر ,١٨٩٢

٦٥- ٣٤/١ مهدية ملف ٣ وثيقة ٨٠ فونتراتو بتاريخ ١٩ أكتوبر ,١٨٩٢

٦٦- Colins : The Southern Sudan. Pp. 100- 102.

67-1/34مهدية وثيقة ٦١ بتاريخ أول يناير ,١٨٩٤

٦٨- ٣٤/١ مهدية وثيقتان ٧٥ ، ,١٢١

٦٩-٣٤/١ مهدية وثيقتان ٦٣ ، ٧٠ بتاريخ ٢٩ شعبان ١٣١ - أنظر أيضا -Sudan In telligrnce Report. No-60 PP. 79-82

70- Sudan Intelligrnce Report No. 29-P. 4 .

71- Thruston: African Incidents. P. 166

72- Thruston: Fbib African Incidents. PP. 179-180